

الفصل الثالث

تمثل الواقد مع تنظير الموروث

أولاً: يحيى بن عدى، والعامري، ومسكويه، وابن سينا.

تمثل الواقد مع تنظير الموروث" نوع أدبي ثالث، حالة افتراضية خالصة لا وجود لها إحصائياً من حيث التعادل الكمي بين نتائج تحليل المضمون للواقد وتحليل المضمون للموروث. هذا التعادل الاحصائي الكمي الدقيق لا وجود له تجريبياً. هذا النوع مجرد معبر بين نوعين أصبيين متقابلين، تمثل الواقد قبل تنظير الموروث (الفصل الثاني) وتنظير الموروث قبل تمثل الواقد. وهو الفصل الأول من بداية التراكم الفلسفي (الباب الثالث). ولا يعنى التعادل التساوى الكمي المطلق. بل هو فى الغالب أولوية تمثل الواقد من حيث العمق أى من حيث تردد الأسماء مثل ديسقوريدس أو جالينوس وأولوية تنظير الموروث من حيث الاتساع أى عدد الأعلام المذكورة. تمثل الواقد عن طريق أسماء وأعلام قليلة وترداد الأول منها كثير، وتنظير الموروث عن طريق عدد أسماء أعلام كثيرة وترداد الأول منها قليل. وكان من الأفضل وضع حرف العطف "مع" أفضل من "و" بالرغم من إفادة كل من الحرفين معنى التعادل دون أولوية أحدهما على الآخر. وقد يكون "مع" أكثر دلالة من "و" حتى يتفق مع استعمالات حروف العطف الأخرى مثل "قبل" فى تمثيل الواقد قبل تنظير الموروث (الفصل الثاني) أو تنظير الموروث قبل تمثل الواقد (الفصل الأول من الباب الثالث). ولم يستعمل حرف "بعد" لأن الأولوية باستمرار للقبل على البعد فى النوع الرابع تنظير الموروث قبل تمثل الواقد (الفصل الأول من الباب الثالث) وليس تمثل الواقد بعد تنظير الموروث حتى لا يكون المعيار باستمرار هو الواقد سواء كان قبلاً أو بعداً.

وقد يدل عدم التناسب الكمي بين الأنواع الأدبية الست على مراحل التحول من النقل إلى الإبداع. فبينما يبدو "تمثل الواقد" (الفصل الأول) صغيراً نسبياً فإن "تمثل الواقد قبل تنظير الموروث" (الفصل الثاني) يبدو ضعفه نظراً لأنه يتعامل مع مصدرى الفكر، الواقد والموروث، وليس مع مصدر واحد. ويعود "تمثل الواقد مع تنظير الموروث" إلى الصغر النسبى لأنه مجرد حالة افتراضية لاوجود لها إحصائياً، مجرد ممر أو انتقال من "تمثل الواقد قبل تنظير الموروث" (الفصل الثاني فى التأليف) إلى تنظير الموروث قبل

تمثل الواقد (الفصل الأول في التراكم).

وبطبيعة الحال إلا يظهر هذا التعادل بين تمثل الواقد وتنظير الموروث قبل القرن الرابع الهجرى نظراً لانشغال المترجمين والفلاسفة الأوائل إما بتمثل الواقد (الفصل الأول) أو بتمثل الواقد قبل تنظير الموروث (الفصل الثانى). فالتعادل بين المصدرين يحتاج إلى معرفة متساوية لثلاثين وهو ما تم عند العامرى ومسكويه وابن سينا فى القرن الرابع الهجرى.

١- يحيى بن عدى. ويبدو تمثل الواقد مع تنظير الموروث" أيضاً عند المترجمين مما يدل على ان الترجمة ليست فقط تمثلاً للواقد قبل تنظير الموروث بل إن تمثيلها للواقد يعادل تنظيرها للموروث لأنها تعمل بين ثقافتين، تنقل النص من ثقافة الواقد إلى ثقافة الموروث.

فمن رسائل يحيى بن عدى (٣٦٤ هـ) "جواب عن كتاب أبى الجيش النحوى فى ما ظنه ان العدد غير متناه" يظهر تعادل الواقد، فيثاغورس، مع الموروث، أبو الجيش النحوى^(١). يعتمد يحيى بن عدى على برهان فيثاغورس لاثبات أن العدد متناه سواء كان عن طريق الاتصال أو الانفصال. ثم يضيف دليلاً جديداً يقوم على إثبات تنهاى الكمية. والعدد كى فهو اذن متناه. ويضيف دليلاً ثانياً يقوم على قسمة العدد إلى زوج وفرد وكلاهما نوع متناه. فالموروث يسأل والواقد يجيب. الواقع يثير الشكوك والواقد يعطى اليقين دون الاكتفاء بالنقل بل بزيادة براهين العقل. فالعقل هو الجامع بين الواقد والموروث.

٢- العامرى. فى "الأمد على الأبد" للعامرى (٣٨١ هـ) يتصدر الواقد على الموروث فى العمق بينما يتصدى الموروث على الواقد فى الاتساع. فمن الواقد يتصدر نو القرنين أو الاسكندر ثم فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو ثم سقراط ثم أرشميدس وديوجانس الكلبي وديمقراطيس الطبيعى وأوميرس وجالينوس وأقليدس وسقراط الطيب ويرقليس الدهرى ويحيى النحوى، حوالى خمسة عشر علماً. ومن الكتب يذكر فادن وطيماس ومن أسماء الشعوب يذكر اليونان ثم رومى^(٢). فالرسالة بهذا المعنى جمع بين أفلاطون وأرسطو ربما لصالح أفلاطون نظراً لذكر محاورتين له، وفيثاغورث مؤسس المدرسة الأفلاطونية. ويتضح من العنوان أيضاً نفس الشيء الرغبة فى الجميع بين الأمد

(١) يحيى بن عدى: مقالات فلسفية، دراسة وتحقيق سحبان خليفات، عمان ١٩٨٨ ص ٢٩٩-٣٠٢.

فيثاغورس (٢)، أبو الجيش النحوى (٢).

(٢) أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى: الأمد على الأبد، تصحيح ومقدمة أورث ك. روسن E.F.

Rowson دار الكندى بيروت، ١٩٧٩.

والأبد أى بين أرسطو الذى يمثل الزمان وأفلاطون الذى يمثل الأبدية أو الخلود. وهى أيضاً رسالة فى فلسفة التاريخ التى تبرز من تمثل الواقد مع تنظير الموروث جمعا بين الفلسفة والكلام، تحاول الجمع بين التاريخ والنبية، فالتاريخ هو الأمد، والنبية هو الأبد. بل أنها أقرب إلى النبية منها إلى التاريخ إذ لا يتجاوز التاريخ ثلاثة فصول من عشرين فصلا. كما يبدأ التنظير المباشر للواقع فى الظهور، ويتضخم على حساب الاقلال من الواقد فى الاتساع ومن الموروث فى العمق. وتقسّم عناوين العامرى بهذا الإيقاع الثنائى الذى يدل على بداية الابداع وأولويته على العرض والتأليف^(١) مثل: الآبار والأشجار، الاقصاد والايضاح، العناية والدراسة. ويحيل العامرى إلى باقى أعماله تأكيدا على وحدة المذهب، الابصار والمبصر^(٢). وأحيانا يكون حرف العطف "و" حرف جر "عن" مثل الأبحاث عن الأحداث. وأحيانا يتكون الجزء الثانى من إيقاعين جزئيين مثل: الإبانة عن علل الديانة، "الاعلام بمناقب الاسلام، الارشاد لتصحيح الاعتقاد، الاتمام لفضائل الأنام، التقدير لأرجح التقدير، للتبصير لأوجه التعبير. وأحيانا يتكون الجزء الأول والثانى من إيقاعين مثل: التسك العقلى والتصوف الملى، إنقاذ البشر من الجبر والقدر، الفصول البرهانية للمباحث النفسانية، فصول التآدب وفصول التحبب، تحصيل السلامة من الحصر والأسر. وتتميز عناوين برجسون أيضا بهذا الإيقاع الثنائى مثل: المادة والذاكرة، الفكر والمحرك، الطاقة الروحية، منبعا الأخلاق والدين، المعطيات البدئية للوجدان، الديمومة والمعية.

وحكاماء اليونان خمسة: أبندافليس تلميذ لقمان ولكنه لم يأخذ المعاد. قال بالمحبة والغلبة. وله مذهب فى صفات البارى وكأنه متكلم أو فيلسوف. واختلط عليه أمر المعاد. وفيثاغورس حكيم أخذ من لقمان، وأتى إلى مصر فأخذ الحكمة من أصحاب سليمان. وتعلم الهندسة ونقلها مخلوطة بالطبائع والدين إلى اليونان، وادعى أنه استفادها من النبوة. ويتفق العامرى مع فيثاغورس باستثناء أن الحكمة قبل الحق. كما خالفه فى شأن المعاد. وأضاف العالم أربعة عشر قسما، أربعة أرضية (العناصر) وثمانية علوية. وأخذ سقراط

(١) ذو القرنين (٢)، الاسكندر (٤)، فيثاغورس، أفلاطون، أرسطو (٦)، سقراط (٤)، أرشميدس، ديوجانس، ديموقراطيس الطبيعى، أوميرس، جالينوس، إقليدس، بقراط الطبيب، برقليس الدهرى، يحيى النحوى (١)، فادن، طيماوس (١)، يونان (٣)، رومى (١).

(٢) يحيل إلى "العناية والدراسة" عرضا لمذهب أرسطو، وإلى "التوحيد والمعاد" لتوضيح طرق مذهب أرسطو، وإلى "الارشاد لتصحيح الاعتقاد" استقصاء دعوى المجوس والتثوية واليهود والنصارى، وإلى "الاقصاد والايضاح" لشرح آية تخرج الملائكة والروح إليه فى كل يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. الأمد ص ١٥٢/٦٩/٨٦.

الحكمة من فيثاغورس. وهو زاهد خالف اليونان وحاججهم وقتل. وزاد على فيثاغورس أن كل إنسان شريف بالحكمة. كما يتفق العامرى مع سقراط إلا في موضوعين، أن الله حكيم أى أن الله حق، وأن السماء تصير بالكواكب فى النشأة الثانية. وأخذ أفلاطون الحكمة من فيثاغورس. جمع بين الالهيات والطبيعات والرياضيات. العالم أبدي مثل برقلس الدهرى الذى ألف فى أزلية العالم ونقضه يحيى النحرى. وسبب اشتغاله بالهندسة ظهور وباء على الأرض. فتضرع الناس إلى الله وسألوا أحد أنبياء بنى إسرائيل. فأوحى له الله بناء مذبح على شكل مكعب فزاد الوباء لأنهم لم يضعفوه. فقرر أفلاطون دراسة الهندسة. والمشهور عنه أن معرفة الشئ مشروطة بمعرفة الله. وأرسطو معلم الاسكندر الذى حارب الشرك دفاعا عن التوحيد، وهو تلميذ أفلاطون. فحسن قوله ورفع التناقضات فيها. فقد قال أفلاطون فى "النوميس" أن للعالم مديرا. وقال فى "فيدون" أن النفس لا تموت، وفى "طيمائوش" أنها تموت. أوضح حقيقة الصواب فى الصلة بين الحكمة والحق، بين فيثاغورس وسقراط، أيهما أصل وأيها فرع؟ له منطق وطبيعات وإلهيات، ولكن كتبهم محشورة بالرموز والألغاز حماية للناس منها وإبعاد الكسالى عنها وتشجيعاً للطبع. والمشهور عن أرسطو أنه قال أنه كان قبل اليوم يشرب ويظماً فلما عرف الله عز وجل روى بلا شرب. هؤلاء الخمسة لا يحترمون من لا يقر بالصانع، ولا يوقن بالثواب، ويعتبرونه ملحداً. عيبهم خلافهم مع الملة الاسلامية، ولا يعترفون بالبعث والنشور ولا يؤمنون إلا بخلود الأرواح. لذلك حكم الاسلام عليهم باليغى والضلال. ولكنهم آمنوا وبرهنوا على إثبات الصانع ووجدانية، ونفى الند وال ضد عنه. والطب والهندسة والتنجيم وأبقراط الطبيب، هو ميروس الشاعر، أرشميدس المهندس، ديوجانس الكلبى، ديموقريطس الطبيعى. وليس كل من قرأ إقليدس يصبح حكيماً. أما جالينوس فطبيب وحكيم، ولكنه يشك فى حدوث العالم والمعاد وخلود النفس. أما أوساخ الزنادقة فيصطادون ضعاف العقول، ويوهمونهم بأنه لو كان الله موجوداً لعرفتهم هذه العقول. ويتهم الجدلبيون بالتعطيل والاحاد. النية صادقة ولكن اتهامهم بالتعطيل قد يودى إلى تزيين الاحاد وتقخير الزندقة، مما يقوى حيل البرية على الضعاف من البرية^(١). وهذا كله "أسلمة" لليونان، ورؤية الآخر من منظور الأنا، وحكام اليونان ما هم إلا تلاميذ أنبياء بنى إسرائيل، مما يجعل العامرى تقليدى الاتجاه. فالعقيدة أساس الحكمة.

ومن الموروث تتصدر آيات القرآن والأحاديث ثم الأنبياء، آدم ثم موسى ثم سليمان ثم المسيح ولقمان ثم الرسول وعيسى وإدريس (هرمس) ونوح وداود، والعزراء البتول وإبراهيم وهود وأخنوخ. ومن تاريخ الأنبياء عاد وادم وثمود^(١). فآدم يأتي أولاً وهو الأصل الذي اجتمعت فيه البشرية والنبوية. فلا بشرية دون نبوة، ولا نبوة دون بشرية. وموسى هو النبي والقائد. وسليمان هو الحكيم. ولقمان أول الحكماء. أخذ من الباطنية. ويؤسس العامري فلسفة للتاريخ ابتداء من قصص الأنبياء. وهم في الغالب أنبياء بنى إسرائيل. ولا يذكر من الحكماء إلا الكندي والرازي الطيب والبلخي وأبا معشر المنجم^(٢). وينقد وصف الرازي بأنه حكيم مع أنه صاحب صنعة الطب. يقول بالقدماء الخمسة. وكان أحمد بن سهل البلخي يرفض تسمية حكيم من يخرج على العقائد، وهو الموقف السلفي الذي يتعاطف معه العامري. ولا يذكر الفارابي وهو الاشرافي. ومن الفرق يذكر المعتزلة وأصحاب الرأي، وأصحاب الحديث، والشيعية والخوارج^(٣). ويقول أهل الاسلام بالبعث والنشور والجنة إلا المعتزلة التي ترى أن النفوس الناطقة لا وجود لها بالحقيقة، والفلاسفة يهولون بها على العامة وأنه ليس للانسان إلا ما يشاهده، وأن الحياة عرض، والموت ضدها، وأن البدن بعد انحلاله لا حياة فيه ولا موت. والله يجمع البدن في النشأة الأخرى، ويخلق فيه الحياة، جنة أو ناراً. وهو رأى جمهور الاسلام أصحاب الرأي والحديث، والشيعية والخوارج. الأرواح البشرية يتوفاها ملك الموت، تفارق الجسد، وتحاسب ثواباً أو عقاباً.

ويظهر تاريخ الأمم السابقة، اليهود والنصارى^(٤)، أنبياء التوراة وشخصياتها وغزو نبختنصر البابلي^(٥). كما تذكر أسماء البقاع المحلية مثل الشام ومصر ثم بيت المقدس ثم القلزم وفلسطين^(٦). وتظهر الثقافة الفارسية الشرقية أيضاً مثل فارس ثم يزدرجن شهريار ثم دارا وكيومرت وهرمزروز ومزوردين وزرادشت والمجوس^(٧). بل

(١) القرآن (١٦)، الحديث (٢) الأنبياء: آدم (٨)، موسى (٦) سليمان (٤)، المسيح، لقمان (٢)، عيسى، إدريس، نوح، داود، العزراء البتول، إبراهيم، اخنوخ، هود، عاد، ثمود، آدم (١).

(٢) الرازي الطيب، البلخي، الكندي، أبو معشر المنجم (١).

(٣) المعتزلة، أصحاب الرأي، أصحاب الحديث، الشيعة، الخوارج (١).

(٤) لليهود (٤)، السامرة، النصارى (١).

(٥) نبختنصر (٥)، متوشالغ (٢)، لا مخ (١).

(٦) الشام، مصر (٣)، بيت المقدس (٢)، القلزم، فلسطين (١).

(٧) فارس (٣)، يزدرجن بن شهريار (٢)، دارا، كيومرت، هرمزروز، مزوردين، زرادشت، المجوس (١).

تذكر الهند. فالغالب على الدهماء فيها أن الأجساد متى حرقت بالنيران تخلصت الأرواح من المذلة والهوية. وتبدأ الرسالة كما تنتهي بالحمدلات والبسملات^(١).

٣- مسكويه. وفي "الذات والآلام" لمسكويه (٤٢١هـ) يتساوى تقريبا الوافد والموروث. من الوافد يذكر الحكماء والطبيعيون دون تحديد لاسم بعينه. فالتأليف يمكن دون أرسطو. ومن الموروث فيلسوف الاسلام على بن أبي طالب مما يدل على تشييع مسكويه، وآية قرآنية واحدة، وعمار بن ياسر يخاطب عليا^(٢). وهو موضوع أخلاقي مثل موضوعات الرازي دون إحالة إلى الفارابي، وهو فيلسوف الانسان. وليس سؤالاً فقهيًا كما هو الحال في "النفس والعقل" بل تأليف مباشر. عند الحكماء الطبيعة عالم الآلام لأنه عالم الحركة في حين أن عالم العقل هو عالم اللذات لأنه عالم السكون. فالحركات آلام، والسكنات لذات. كما قالت الحكماء أن لذة الخالق بذاته وفرحه وسروره بها لا تقارنها لذة أخرى أو فرح آخر. ولذة الفضلاء هي الثواب الموعود والمقام المحمود في دار الخلود التي دعا إليها الأنبياء وأثبتها الحكماء. وعند الطبيعيين اللذة رجوع إلى الحالة الطبيعية، ولا تصح في الأمور النفسية أو الإلهية^(٣).

ومن الموروث يستشهد مسكويه بقولين لفيلسوف الاسلام على بن أبي طالب: الأول أن اللذات خادعة لأنها ليست طريقًا إلى الله وفي الأمور الطبيعية خدعة للحيوان مثل السفسطة والدواء المر المحلى للنصيبان. فتزين المرأة أحسن شيء فيها وهو وجهها وتريد أفح شيء فيها وهو فرجها. والثاني أن لذات الدنيا خمس: مأكول وأفضله العسل وهو في نجابة، ومشروب وأفضله الماء وهو أهون موجود، وملبوس وأفضله الديداج وهو لعاب دود، ومشموم وأفضله المسك وهو دم فارة، ومنكوح وأفضله مبال في مبال. أما المبصرات والمسموعات فهي من ملذات الآخرة، تعرف في الدنيا تشوقًا لها في الآخرة. ولكن ألم تصور الجنة أيضا على أنها لذات حسية من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمشموم؟ أليس المسموع والمرئي من محرمات الدنيا والموسيقى والرقص؟ وماذا عن من لا يذوق العسل ولا يحبه؟ ولماذا الماء أهون موجود وهو ينحت الجبال ويولد الطاقة؟ ولماذا احتقار الدنيا إلى هذا الحد؟ وهل يمكن أن يقال ذلك للفقراء؟ ومن الموروث تذكر آية قرآنية واحدة عن لذة المعرفة الإلهية في مقعد صدق عند مليك مقتدر

(١) الأمد ص ١٥٢-١٥٣-٧/٧٧/٥٨.

(٢) الحكماء (٣)، الطبيعيون (١).

(٣) الذات ص ١-١٠٤.

بالذوق المباشر بالتخلي عن العلائق، والانقطاع عن الدنيا، والتوجه نحو الكمال والغاية. وتبدأ الرسالة بالبسملة وتنتهى بالحمدلة والصلاة والسلام على محمد النبي وآله.

وآليات الابداع فى "الذات والآلام" بسيطة^(١). تقوم على القدرة على رؤية الأمور بعين الوحدة، والذهاب إلى ما وراء الألفاظ بعد عرض الآراء المختلفة كما فعل الفارابى فى "الجمع بين رأى الحكيمين"، وفى نفس الوقت القدرة على تصور الحياة، ارتقاء، ونشأة، وتطورا واكمالا، بداية بعالم الكون والفساد والحركة، وتوسطا بعالم الشهوة والنزاع والمحبة والعشق ووصولاً إلى عالم اللذة والكمال، اثنان فأربعة فائتان. عالم الطبيعة هو عالم كمال الآلام، وعالم العقل هو عالم الذات. والموجود بالنسبة للمعشوق ثلاث مراتب: مالا يُعطى وهو الجماد والنبات والحيوان، وما يُعطى بالقوة وهو الانسان، وما يُعطى بالفعل وهو الملاك. والرسالة كلها خطاب فى البيان^(٢).

٤- ابن سينا. أ- وفى رسالة "إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم" لابن سينا (٤٢٨ هـ) يذكر أرسطو ثم أفلاطون ثم فيثاغورس وسقراط والاسكندر. فقد عدل أفلاطون أرسطو لاداعته الحكمة وإظهاره العلم حتى قال: اعترف أرسطو أنه بالرغم من أعماله العديدة إلا أنه ترك فيها مهوى كثيرة لا يقف عليها إلا الخاصة من العلماء والعقلاء، وهو ما قاله الفارابى من قبل فى الجمع بين رأى الحكيمين. ولا تهم الحقيقة التاريخية. فأفلاطون سابق على أرسطو وبالتالي يستحيل تعذيله وتوبيخه لاداعته الحكمة. بل تهم الدلالة وهى أن الحكمة لا يقدر عليها إلا الخاصة دون العامة كما صرح الغزالى من قبل فى "المصنوع به على غير أهله" و"إجماع العوام عن علم الكلام". بل هو إجماع العلوم الاسلامية كلها، الكلام والفلسفة والتصوف والأصول. هى علوم للخاصة وليست للعامة، علوم التنزيه فى الكلام والتأويل فى الفلسفة، والذوق فى التصوف، والاستدلال فى الأصول. ويذكر أفلاطون وفيثاغورس وسقراط وفلاسفة يونان فى هذا السياق. فقد قال أفلاطون فى كتاب "النواميس" بضرورة تأويل رموز الرسل حتى ينال الملكوت الالهى. وقد استعمل فلاسفة يونان وأنبياؤهم المراميز والاشارات. وهنا يوسع ابن سينا مفهوم الفلسفة ليشمل النبوة، ويضم الأنبياء إلى فلاسفة يونان، قراءة للنفس فى الآخر، وإكمالا للآخر بالنفس. ويميز ابن سينا بين كتاب "النواميس" الرمزي الاشارى الصوفى النبوى

(١) تذكر آليات الابداع إذا كانت واضحة بعد تحليل الوند والموروث طبقاً للموقف الحضارى، الوند هو الآخر، والموروث هو الأنا، وآليات الابداع التنظير المباشر للواقع.

(٢) الذات ص ٩٨-٩٩.

وكتاب "السياسة" أى "الجمهورية" لأفلاطون^(١). الأول للخاصة والثانى للعامه. الأول أقرب إلى الموروث فيتم تعشيق الاثنيين فيه، والثانى أقرب إلى الواقد. ويظهر المصطلح الفلسفى الجديد مثل المراميز جمعا لرمز. واعتبر فلاسفة اليونان وحكماؤهم مثل فيثاغورث وسقراط وأفلاطون أقرب إلى الأنبياء والرسل لما فى أقاويلهم من رموز وإشارات. كما يستشهد بأرسطو لشرح اسم النور الذاتى وليس المستعار أى أرسطو العالم الطبيعى، والمستعار من اللغة العربية. ويدافع عن أرسطو ضد سوء تأويل الاسكندر الأفروديسى بجعل العقل الكلى الآله الحق الأول. كما يستشهد بأرسطو فى آخر كتاب "سمع الكيان"، أن نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع، فلك الأفلاك، وأن الله هناك وعليه لا على حلول. ففى موضوع موروث مثل الالهوية والنبوة يظهر اليونان. إذ أنهم يمثلون ثقافة العصر واستعمالها من أجل موضوع موروث كما تستعمل الآن ثقافة العصر فى العلوم السياسية من أجل علم الكلام السياسى والشريعة والقانون والاجتماع والعلوم الانسانية بوجه عام^(٢).

ومن الموروث يتصدر القرآن والحديث القدسى ثم اسم محمد والنبي^(٣). ولا يظهر متكلم أو فيلسوف أو صوفى أو أصولى أو فقيه أو مفسر أو محدث. يتعامل ابن سينا مع الأصول الأولى وحدها لتتظيرها وكأنها موضوعات، وكان علوم الحكمة أصبحت بديلا عن علوم التفسير. الآية الأولى هى آية المشكاة ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يستعملها الصوفية، ويفسرها الغزالي. ويمكن من خلالها عرض نظرية المعرفة الاشرافية، شرح كلمة كلمة وعبارة عبارة^(٤).

والآية الثانية ﴿يحمل عرش ربك يومئذ ثمانية﴾. وتتضمن صورا فنية لموضوع غيبى قريب الشبه بموضوع الاستواء فى علم الكلام. فالعرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية وليس كما يقول أنصار التشبيه من المشرعين أى الفقهاء من حلول الله فيه وجلوسه عليه. نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع، فلك الأفلاك. ومن ثم فلا حلول كما بين أرسطو. وهنا يستعمل أرسطو دفاعا عن التنزيه. أما الحكماء الفقهاء فقد أجمعوا

(١) رسالة النبوات وأقويل رموزهم وأمثالهم، تسع رسائل ص ١٢٠-١٣٢ أرسطو (٥)، أفلاطون (٣)، فيثاغورس، سقراط، الاسكندر (١).

(٢) السابق ص ١٢٤-١٢٥ / ١٢٨.

(٣) القرآن (٣)، الحديث القدسى (٢)، محمد (٥)، النبي (١).

(٤) هذا ما فعله أيضا ممثل الوضعية المنطقية فى العالم العربى، زكى نجيب محمود فى "المعقول واللا معقول" فى تراثنا الفكرى، دار الشروق، القاهرة.

على أن العرش هو هذا الجرم، وأن الفلك يتحرك بالنفس حركة شوقية لأنه الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية، والذاتية إما طبيعية وإما نفسية. فففسه ناطق كامل فعال. والأفلاك لا تنفى ولا تتغير كما ذاع فى الشرع أن الملائكة أحياء، فهى مثل الأفلاك. ومن ثم صح أن العرش محمول على الأفلاك الثمانية. والحمل نوعان، بشرى من حامل ومحمول، وطبيعى كحمل الماء على الأرض والنار على الهواء، وهو المقصود بحمل العرش دون التماس. وتحديد الحمل بالساعة والقيامه لأن من مات قامت قيامته. ولما كانت النفس الانسانية مفارقة ارتبطت بوقت المفارقة، الوعد والوعيد. يحول ابن سينا الكلام إلى الفلسفة، والشرعيات إلى كونييات، ويفسر الاستواء على العرش بالأفلاك. ويعتمد على النقل والعقل مفسراً للشرع بالشرع، والنص بالنص، والكتاب بالسنة. وفى نفس الوقت يثبت المعاد، الوعد والوعيد والثواب والعقاب. يؤكد على الزمان فى "يومئذ"، ويهرب من المكان فى "فوقهم". لم يتخل ابن سينا عن التصور المكاني كلية. فالعرض نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية. فهل هو أول الخلق أم آخره؟ مخلوق أم غير مخلوق؟ وأين كان الله يستوى قبل الخلق؟ وإذ كان العرش قديماً فهل يوجد قديمان؟ وهى مسائل نظرية لا حل لها إلا فى التأويل المجازى كما قال المعتزلة أو فى الصورة الفنية والتخييل كما قال الحكماء دون الوقوع فى تأسيس علم كلام فلسفى جديد بالرغم من السخرية من علم الكلام القديم عند المتشبهة والمتشعبة^(١).

ويفسر ابن سينا الآية الثالثة ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ بأن الجحيم هى النفس الحيوانية، باقية دائمة فى جهنم. وهى قسمان: إدراكية وعملية. والعملية قسمان: شوقية وغضبية، وهى تصورات الخيال، المحسوسات بالحواس الظاهرة الستة عشرة، والقوة الوهمية حاكمة على تلك الصور حكماً غير واجب، واحدة ذاتياً فيكون المجموع تسعة عشر. يحاول ابن سينا إيجاد التجارب الانسانية المقابلة للأعداد سواء الثمانية السابقة أو التسعة عشرة الحالية. تصف الآية واقعا إنسانياً كما هو الحال فى تحقيق المناط عند الأصوليين. يلجأ ابن سينا إلى هذه الموضوعات الغيبية التى تسمح بالتأويل الفلسفى كما تفعل الصوفية. الجحيم هو الجهل، والنعيم هو العلم. وهو تأويل يفيد مجتمعات الجهل التى تريد أن تتحول إلى مجتمعات العلم. أما الملائكة فهى القوة اللطيفة غير المحسوسة، صورة فنية للتعبير والتأثير. ويبدأ ابن سينا الآية بأنها ما بلغ النبى محمداً عن ربه. ثم يؤولها تأويلاً إنسانياً. فالإلهى إنسانى على مستوى التبليغ والفهم كما يقول المعاصرون. لذلك

(١) السابق ص ١٢٥ / ١٢٨ - ١٢٩.

يذكر اسم النبي محمد ويصلى ويسلم عليه في التبليغ وصحة دعوته للعاقل وفي إيصال رسالته إلى العرب الأجلاف^(١).

والحديث القدسي الأول "ان لل نار سبعة أبواب وللجنة ثمانية أبواب" تبليغ من الله إلى النبي. فالأشياء المدركة إما مدركة للجزيئات، الحواس الخمس الظاهرة ثم إدراك الصور مع المواد أو بدون المواد في خزانة الحواس، وهو الخيال، وقوة حاكمة عليها حكما غير واجب وهو الوهم، وقوة حاكمة عليها حكما واجبا هو العقل. فهذه ثمانية إذا اجتمعت أدت إلى السعادة السرمدية والدخول في الجنة، وإن نقصت إحداها أدت إلى الشقاوة السرمدية والدخول في النار. وفي اللغة المؤدى إلى الشئ يسمى بابا. لذلك سميت أبوابا، السبعة المؤدية إلى النار والثامنة المؤدية إلى الجنة، وإذا كان العدد الرمزي سبعة فلماذا زيد واحد في الجنة؟ ولماذا أخذ ابن سينا ثلاث حواس باطنية فقط ولم يأخذ الخمسة كلها مثل التذكر والحس المشترك؟ وهو أيضاً موضوع غيبي يمارس فيه ابن سينا منهجه في التأويل بتحويله إلى دلالات إنسانية قياسا للغائب على الشاهد. لقد استطاع ابن سينا تحويل النصوص إلى تجارب إنسانية ومعاني عقلية على أوسع نطاق من العمومية والشمول، ولكن ظل التأويل مرتبطا بثقافة العصر، علم الفلك القديم، وعلم النفس، وطرق المعرفة القديمة. فإذا ما تغيرت ثقافة العصر تغير التأويل. وهل يمكن تجاوز تشخيص الطبيعة إلى الانسانيات مباشرة وإعطاء تأويل إنساني عام لكل العصور أم أن التأويل بطبيعته فهم للنصوص في ثقافة كل عصر؟

ويؤول ابن سينا الحديث القدسي الثاني "ان على النار صراطا صفتة أنه أحد من السيف وأدق من الشعر، ولن يدخل أحد الجنة حتى يجوز عليه. فمن جاز عليه نجا، ومن سقط عنه خسر" كمناسبة لتحويل الغيبيات إلى مشاهدات، والوحي إلى تجارب إنسانية^(٢). وهي صورة فنية للعقاب ودون فهم العقاب أولا. وبدون التجربة الانسانية لا يمكن فهم الصورة الفنية المتضمنة في النص. الصورة الفنية وسيط بين الوعي والنص. بها من الوعي الشعور أو الخيال وبها من النص الحروف والكلمات. الثواب هو البقاء في العناية الإلهية الأولى ولا يحصل إلا بعد الكمال العلمي والعملى، وذلك عن طريق مجاهدة النفس الحيوانية في أفعالها العملية وإدراكاتها العلمية. ويكون الهلاك بمطابقة الوهم للوحي الحيوانية في غيبة الحواس. وتكون النجاة بمطابقة العقل للصور العقلية الشريفة. ويمكن

(١) السابق ص ٢٤-١٢٥ / ١٢٦-١٣٢.

(٢) ويمكن دراسة "التأويل الفلسفي" عن ابن سينا موضوعا لرسالة جامعية.

على هذا الأساس فهم الجنة والنار. فالعوالم ثلاث: عالم حسي، وعالم خيالي ووهمي، وعالم عقلي. العالم العقلي وهو المقام في الجنة. والعالم الخيالي الوهمي هو الحطب. والعالم الحسي هو القبور. ولما كان العقل في حاجة إلى استقرار الكليات من الجزئيات فإنه يحتاج إلى الحس الظاهر الذي يقدم المحسوسات إلى الخيال والوهم. وهذا هو طريق جهنم، الصراط الدقيق. فإذا توقف الإنسان ولم يتجاوز الوهم والخيال إلى العقل وقف على الجحيم وسكن في جهنم. يحول ابن سينا الأخرويات من مستوى الكونيات إلى مستوى المعرفة. فالصراط ليس شعرة حسية بل طريقا للمعرفة يؤدي إلى الوهم أي إلى النار أو إلى العقل أي إلى الجنة. التأويل إذن هو إرجاع الخارج إلى الداخل، والموضوع إلى التراث، والشئ إلى المعنى، والواقع إلى الفكر^(١). لقد توجهت علوم الحكمة إلى السمعيات كي تحيلها إلى عقليات متجاوزة علم الكلام، محولة الصور الفنية إلى علوم نظرية وسلوك عملي ومتجاوزة المصادفة والسير على الصراط عندما تتكافؤ الأدلة وكأن المؤمن بهلوان تساعده الملائكة كي يقع في الجنة أو تدفعه الشياطين كي يقع في النار. وقد اختار ابن سينا الآيات القرآنية والأحاديث القدسية من نفس النوع الغيبي الأخرى الذي يسمح له بالتأويل الإشراقي، وليس الآيات والأحاديث العملية التي تنفع الناس في الدنيا، وكما نحتاج هذه الأيام في مجتمعات الضلال والتخلف. حول ابن سينا الأخرويات إلى إنسانيات، الثواب والعقاب، السعادة والشقاء.

ب- وفي "سر القدر" ذكر الحكيم تحولا من الشخص إلى الرمز وأفلاطون في المقدمة الثالثة، إثبات المعاد للنفوس وليس في المقدمتين الأوليين، نظام العالم وحديث الثواب والعقاب. ينكر الحكيم وجود الشر القسدي في العالم على عكس الخير. فالشر إعدام وليس وجودا. وهي نظرة متفائلة تشبه نظرة الإسلام على عكس أفلاطون الذي يرى أن الشر والخير مقصودان استشهادا بالآية القرآنية ﴿يا أيها النفس مطمئنة، إرجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ كمقدمة نقلية. فالموروث وعاء للوفاء، والوفاء مادة للموروث ومضمون لها. ولا يستشهد بالقرآن إلا في المقدمة الثالثة بعد الأولى في نظام العالم والثانية حديث الثواب والعقاب، إثبات المعاد للنفوس. فالمعاد دعوة للنفس مطمئنة. ويعود ابن سينا إلى المسألة الصوفية التي سئل عنها "من عرف سر القدر فقد أهدى إلى الأصل في الحديث" القدر سر الله، ولا تظهروا سر الله" بصرف النظر عن صحة السند أو المتن مع أن صيغة "ما روى" وليس حديث الرسول أو قال الرسول تشكك فيه.

(١) النبوات ص ١٣٢.

والأقوال الثلاثة المنسوبة إلى علي تحتل الشك أيضا إذ أنها تدور حول نفس المعنى بصياغات أدبية متعددة مما قد يكشف عن الإبداع الذاتي، الفكرة التي تخلق صورها. وقد يدل استشهاده بعلى ثلاث مرات على تشييعه. كما يستشهد بحديث أو قول مأثور "اعملوا، فكل ميسر لما خلق الله". وتظهر بعض التعبيرات القرآنية تعبر عن المخزون الأدبي لابن سينا. كما تظهر العبارات القرآنية وأساليبه في الخطاب مثل الشراب الطهور، وضرب الأمثال، ولا يسأل عما يفعل، وكل شيء هالك إلا وجهه^(١).

ثانياً – ابن باجه.

١- الرسائل. ويقع كثير من رسائل ابن باجه في هذا النوع، التعادل بين تمثل الواقد وتنظير الموروث، مثل:

أ- "ومن كلامه ما بعث به لأبي جعفر بن يوسف بن حسداى"^(٢). فقد ذكر من الواقد بطليموس ثم أرسطو والاسكندر ثم ثامسطيوس. ومن الكتب يحال إلى السماع الطبيعي والكون والفساد. ومن أسماء الفرق يذكر المفسرين^(٣). ويرد ابن باجه على من زعم أن ما أتى به أرسطو في الحركة والمحرك ليس برهانا. كما يضع ابن باجه نسقا لأرسطو كله في موضوع واحد غير مؤلفات أرسطو كما فعل في حد الأضداد الفاعلة والمنفصلة. وتبدو أهمية السابعة والثامنة في السماع أن بها نظرية الحركة والمحرك خاصة المحرك الأول الذي لم يرد أرسطو بيانه باطلاق كما توهم المفسرون بل المحرك الأول بالاضافة إلى حركة مفروضة. يستشهد ابن باجه بأرسطو بعد الدراسة وليس قبلها تدعيما لموقفه وليس نقلا عنه. لم يكن غرض أرسطو ذكر المحرك باطلاق أي أن غرضه لم يكن الالهيات بل الطبيعيات. وأكمله المسلمون كعلم مستقل لدرجة اعتبرها المفسرون خارج العلم. وهو ما صرح به ابن باجه في المقالتين السابعة والثامنة ونقد ثامسطيوس وجالينوس في خلطهما معنى المحرك عند أرسطو. وهو نفس موقف ابن رشد فيما بعد مع اختلاف التفاصيل^(٤). وقد دافع الاسكندر عن أرسطو وزعم الناس أنه في الحركة والمحرك لم يأت بيرهان لأن البرهان منطقي أي أن تكون أجزاء القياس أي

(١) سر القبر، جامع ص ٢٤٥-٢٤٩.

(٢) رسائل ج١ ص ٧١-٨١.

(٣) بطليموس (٣)، أرسطو، الإسكندر (٢)، ثامسطيوس (١)، السماع الطبيعي، الكون الفساد (١)، المفسرون (١).

(٤) رسائل ج١ ص ٨٠ هامش (١٩).

الحدود الوسطى بالعرض. وينقد ابن باجه الاسكندر، ويجعل الحد الأوسط ذاتياً. ويحيل إلى "السماع الطبيعي" بعد أن تحول الكتاب إلى موضوع مستقل عن صاحبه وبعد أن تحول إلى علم دون كتاب، والعلم مشاع بين الجميع. ويحيل إليه مسألتين رئيسيتين تؤخذ منهما المسائل الأخرى حد الأضداد الفاعلة والمنفصلة وحد أرسطو لها حدوداً متأخرة في الكون والفساد كما يحلل ابن رشد الموضوعات بالاحالة إلى كل طبيعيات أرسطو. ويشير ابن باجه إلى الموروث الناقد للوافد مثل الشكوك على بطليموس لابن الهيثم استئنافاً للتراكم الفلسفي.

ويظهر الموروث في اسم الرسالة، حسداى. فاليهود جزء من الأمة^(١). وتدل المراسلة مع ابن حسداى على التعايش السلمى بين المسلمين واليهود فى الأندلس، والصدقة بين الفيلسوفيين فى مجتمع دينى يقوم على الوحي بلا تمييز بين مراحلها، بل ويقدر تراث المجتمع الوثنى الدينى السابق، وهو فى حد ذاته موقف إبداعى. ويتصدر الزرقالة ثم ابن حسداى وابن الهيثم وأبو نصر. ويحال إلى كتاب الشكوك على بطليموس لابن الهيثم، وإلى مكان تأليف الرسالة، أشبيلية^(٢). والزرقالة بطليلة معروف بولد الزرقيان أو ولد الزرقيال فى الأرصاء والكواكب والأفلاك والآلات النجومية. وله صحيفة الزرقيال التى لم يفهما المشرق. وينقد ابن باجه نقد الزرقالى وابن الهيثم لبطليموس. والموضوع علمى يضع فيه ابن باجه تجاربه الشخصية. وهو على وعى بمنظوره. وينقسم إلى موضوعات متقطعة انعكست على طريقة التأليف فى فقرات متقطعة^(٣). ويصرح ابن باجه بأنه تعلم عن الفارابى المنطقى ضروب البرهان. وقد تعلم منه ذلك متأخراً بعد الرياضيات والفلك والموسيقى. وينقد ابن باجه الزرقالة إبراهيم بن يحيى الأندلسى بأنه لم يكن من أهل صناعة الهيئة. بل كان يقول فيها بحسب سوانحه ولوائحه. فتضطرب أقواله، ويكثر الكلام فيما لا معنى له. لذلك ناقض بطليموس فالزرقالة نموذج البعيد عن الصفاة بالرغم من كتابته مقالا يبطل فيها طريق بطليموس فى استخراج البعد الأبعد لعطارد. فهو نموذج الهاوى فى العلم لا المتخصص. ينقد ابن

-
- (١) ابن حسداى طبيب سافر من الأندلس إلى مصر، وارتبط بالمأمون الذى أمره بشرح كتب أبو قراط. وكان قد بدأ بشرح كتاب الإيمان لابرقراط. له أيضا بعض شروح كتاب الفصول. وله مع ابن باجه مراسلات.
- (٢) الزرقالة (٤)، ابن حسداى، ابن الهيثم، أبو نصر (١)، الشكوك على بطليموس لابن الهيثم (١).
- (٣) وذلك مثل: "أما الزرقالة ... "وهذا رأى وقع فيه من تقدمه" ثم فقرة فى التجارب الشخصية "وهذه صناعة شغلت بها نفسى"، ثم فقرة فى الموضوع، والمقالة التى قال الزرقالة ثم عود إلى التجربة الشخصية" وأما صناعة الموسيقى فأنى زاوتها"، ثم عود إلى الموضوع فى مسألتين.

باجه الموروث قدر تعامله مع الواقد. الزرقالة غير عميق فى الفلك، ذاتى غير موضوعى، ذو كلام مضطرب، كثير الكلام بلا دلالة، يذهب عليه بعض معانى العلم، ويناقض بطليموس. ويدافع ابن باجه عن بطليموس فى حين أن ابن رشد ينتصر لأرسطو وينتقد بطليموس فى مقالة اللام. يظهر ابن رشد الأصل الواقد، ويظهر ابن باجه العلم الواقد. فالعلم ليس الإشراق ومع ذلك يوضح الإشراق العلم. العلم من الذات لامن الموضوع، من الداخلى لا من الخارج. العلم تصوف العلم. يعبد ابن باجه تأويل العلم الطبيعى فى الأندلس تأويلاً صوفياً. فكيف يقال أن مشروع الغرب الإسلامى كان عقلياً وفيه ابن باجه وابن عربى ومدرسة بن مسرة "وزهر" فى التصوف اليهودى. وخطأ الزرقالة هو خطأ ابن الهيثم بل ان ابن الهيثم أسوء من الزرقالة وأبعد عن صناعة الفلك. ينقد ابن باجه موقف ابن الهيثم من بطليموس. ابن الهيثم مثل الزرقالى فى نقده لبطليموس مع أن الهيثم أوضح والزرقالى مشوش. لم يقرأ ابن الهيثم الصناعة إلا من أسهل الطرق. بل إنه أبعد منها عن الزرقالة. ربما لأنه بصرى وليس فلكياً. ربما لم يكن لديه وقت أو نقله عن غيره وكان ابن باجه يجد له الأعداء. المهم هو تحليل التراكم التاريخى الفلسفى والعلمى ووضع الواقد والموروث فى وعى تاريخى واحد. ولا يوجد هجوم مماثل على الداخلى على الأشعرية والكلام والإشراق عند ابن سينا. وتظهر البيئة الجغرافية المحلية مثل أشبيلية مدينة تعلم صناعة الموسيقى.

ب- وفى "من كلامه على إِبَّاتة فضل عبد الرحمن بن سيد المهندس" يظهر من الواقد أبولونيوس مع كتابه فى المخروطات وأقليدس وليس أرسطو^(١). ويقارن ابن باجه بين توليد القطوع عن ابن سيد والمخروط عند أوقليدس فى آخر المقالة العاشرة من كتابه، بين الموروث العلمى والواقد العلمى. كما ينقد أبولونيوس لأن البرهان بين أن التماس لا يكون بإحدى الجهتين اللتين ذكرهما أبولونيوس. ويذكر ابن باجه محيلاً إلى المقالة الأولى من "المخروطات" دون ذكر اسم مؤلفه أن كل سطح يلقى بسيط مخروط ولا يمر برأسه يقطعه وغير ذلك من المسائل الرياضية.

ومن الموروث يذكر ابن سيد ثم ابن الإمام وابن الصائغ وابن النضر مع ذكر مكان أشبيلية. ويحكم ابن باجه على الداخلى مع احترام كامل للأخريين دون إزاحتهم كما يفعل المغاربة المعاصرون. وهو موضوع رياضى ينتمى إلى المرحلة الأولى. ويتضح ذلك من المرسل إليه، وهو من أهل بلنسة، عالم بالحساب والعدد والهندسة. ويستأنف ابن

(١) الرسائل. جـ ١ ص ٨٤-٨٧.

باجه ما قام به ابن سيد المهندس من قبل بعد أن استأنف ابن سيد نفسه تراث المهندسين قبله، ولكنه كان أقرب إلى الاتصال معهم دون أن يطور الموضوع وينقله نوعياً ربما لعوائق عصره أو لعمله بمفرده مما يحتاج إلى تطوير وإكمال. ومع ذلك استطاع ابن سيد أن يختص بشيء جديد بالإضافة إلى تراث القدماء، وهنا يدخل ابن ماجه لاستئناف الجديد، فالتراكم التاريخي شرط الإبداع.

ج- وفيما كتب رضى الله عنه إلى الوزير أبى الحسن بن الإمام* يبدو الواقد أولاً فى إقليدس ثم ثامسطيوس وأرسطو والاسكندر وأبولونيوس وشاعر اليونان. ومن الكتب يحال إلى نيقوماخيا والبرهان وبارمينياس^(١). والموضوع بين الرياضيات والمنطق. وذكر ابن باجه السياق التاريخي له مما يدل على أنه يدرس موضوعاً ولا يشرح قولاً. وتبدو أهمية العلة الغائية. كما تظهر القيمة فى المنطق. ويبين ابن باجه كيف لخص أرسطو موضوع الروية والاستعداد، نشأتها وكمالها فى السادسة من نيقوماخيا بالرغم من صعوبة وجود صناعة محدودة للارتياض أو إيجاد أسماء للأفعال الرياضية والتجريب من أصنافها. ويرى ابن باجه أن وجود الفكرة البرهانية والروية فى كل إنسان لم تلحقه آفته وله قوة على قبولها. وهى بالاكنتساب. ويستشهد بثامسطيوس أنها قد توجد لبعض الناس بالطبع فى القياس فى ذوى الفطر الفائقة. ويستشهد بتسمية الاسكندر القياس الصادق البرهان المنطقي وهو الذى يستلزم الحد الأوسط ويكون ما به قوامه وإلا كان القياس مجرد دليل ليس ما به قوامه. ويضرب المثل من إقليدس على أن الأقاويل الهندسية أمور بالعرض سهواً وتسامحا من المهندس مثل أن ضلع المسدس إذا اتصل بضلع المعشر انقسم الخط على نسبة ذات ونسبة طرفين. وهو قل ما يوجد فى كتب المهندس، إنما تسامح أوقليدس فى ذلك أو فاتت عليه لتلازم وجود ضلع المسدس ونصف القطر بالتكافؤ لزوم الموجود. فأوقليدس موضع نقد. قد يخطيء عن قصد أو عن غير قصد. ويبين ابن باجه حد الخطوط الصم. وهو الموضوع الذى يتعرض له أوقليدس فى المقالة العاشرة من كتابه. كما يبين القطاع الثلاثة كما فعل أبولونيوس فى أول كتابه عن المخروطات لأن الحدين لم يكونا واضحين. مهمة ابن باجه إذن توضيح الواقد العلمى. فهو الدارس والواقد المدروس. وهو على علم بمطالب الموروث وبمكانه فى الواقد على وجه الدقة وليس فقط بالأحالة إلى مقالات الكتاب.

(١) رسائل جـ ١ ص ٨٨-٩٦. أوقليدس (٤)، ثامسطيوس، أرسطو، الاسكندر، أبولونيوس، شاعر اليونان

(١)، نيقوماخيا، البرهان، بارمينياس (١).

ويبرز ابن باجه الطابع المحلي اليوناني للوafd في ضرب الأمثلة على أن المهندس الذى ليست له القوة على صنعة براهينها واقتصر على حفظها يصبح مثل الكتاب المبسوط كما قال شاعر اليونان على طريق التشبيه. ويحيل الموضوع إلى كتاب البرهان وإلى كتاب بارامنياس وكأنهما مرجعان سابقان وترث سابق يحال إليه دون تكراره.

ويظهر الموروث فى العنوان بالإضافة إلى ابن سيد وأبى نصر وامرؤ القيس والإحالة إلى أشعار العرب ونحوى العرب وشرح الخطابة من الوafd الموروث عند الفارابى^(١). يكشف ابن باجه حقيقة الظنون التى قبلت عن الفارابى مثل أن الأقاويل الرياضية بلاغية. ويكشف عن سوء تأويل شرح الفارابى كما يفعل ابن رشد مع شرح أرسطو. وكان ابن سيد قد استخرج بعض البراهين من نوع هندسى لم يشعر بها أحد من قبله دون أن يدونها بل لقتها شفاها لاثنتين، الأول استشهد فى الجهاد، والثانى ابن باجه الذى استخرجها وزاد عليها وأضاف إليها مسائل برهن عليها وهو فى السجن للمرة الثانية. وكتب عنها إلى الوزير دون تفصيل إتماما لابن سيد واعترافا بفضله. فالمحرك الأول له الفضل على المحرك الثانى. ويكشف السياق عن اشتراك العلماء فى الجهاد ضد الأعداء فى الخارج حتى الاستشهاد وضد الأمرء فى الداخل حتى السجن والاعتقال وعن الأمانة العلمية لابن باجه فى الاعتراف بفضل القدماء ونسبة الحق إليهم دون نسبته إلى نفسه، واستعمال مصطلح المحرك الأول، وهو تصور دينى، كتشبيهاة فى تحليل الحركة فى الطبيعيات. ويظهر الشعر العربى كمادة محلية مورثة. فنسبة المنطق إلى الرياضة كنسبة النحو إلى الشعر والخطابة. المنطق نحو الفكر والنحو منطق اللغة. لذلك يروض النحاه المتعلمين بإعراب أشعار العرب كشعر امرؤ القيس وغيره.

د- وفى "النفس النزوعية" من الوafd يذكر أرسطو ويحال إلى الثامنة من السماع الطبيعى ثم إلى السماء والعالم والحيوان^(٢). والموضوع رياضى طبيعى استبعادا للالاهيات وكأنها انحرف عن المنطق والطبيعة. ويعود ابن باجه إلى الكندى متجاوزا إشرافيات الفارابى وابن سينا مما ساعد مهمة ابن رشد فى العودة إلى العقل والطبيعة أساسى للوحى. المشروع الفلسفى فى المشرق العربى عند الكندى هو نفسه المشروع الفلسفى فى المغرب العربى عند ابن باجه وابن رشد حصارا لاشراقيات الفارابى وابن سينا فى المشرق، وابن طفيل فى المغرب.

(١) وهو شرح لم يصل إلينا.

(٢) رسائل ج١ ص ١٠٦-١٢٠، بدوى ص ١٤٧-١٥٦.

وابن باجه هو الدارس للشيء والرأى له. والاستشهاد بأرسطو هو إرجاع قوله إلى الشيء المرئى عند ابن باجه. الموروث يوضح الواقد ويؤكد. ويحيل إلى الثامنة ويفهم أنها من السماع الطبيعي. فقد أصبح كل مقال موضوعا توخيا للدقة وتمييزا للموضوعات عن الكتب. لكل متحرك محرك، ومحركه غيره ومن ثم تتوالى أجناس المحرك. ويحيل إلى السادسة فى أن الحركة لا أجزاء لها. كما يحيل إلى الثامنة فى أن الجمادات ليست تفعل بل تتفعل. ويحيل إلى الخامسة وإلى الأولى من السماء والعالم وإلى الحيوان. ابن باجه هو الدارس ثم يتبين قول أرسطو بإظهار ابن باجه الشيء المدروس.

ومن الموروث يحال إلى أبى نصر وكتاب الموجودات المتغيرة، كيف يصير ما بالقوة الطبيعية أسفلا أسفلا بالفعل، وكيف يتحرك بحركة محرقة. فالحكمة مشروع متكامل بين المشرق والمغرب، بين الفارابى وابن باجه. كما يحال إلى لغة العرب لبيان خصوصية اللغة. ويحاول إيجاد أسماء عربية للمعاني الفلسفية مثل النقلة للحركة فى المكان. وإذا قيلت على باقى أصنافه تسمى الانتقال. ويستعمل الأسلوب العربى فى زيد وعمره للإشارة إلى الفاعل أو المبتدأ فى النحو أو الموضوع والمحمول فى المنطق^(١).

هـ- وفى "اللزوعية" يظهر من الواقد أرسطو. ويحال إلى "السماء" ثم إلى "الكون والفساد" ثم إلى "الأثار العلوية" و"قاطيغورياس". ومن الفرق يحال إلى المفسرين. ومن الموروث يذكر أبو نصر والمنصور ثم عبد الله بن على. كما تذكر العربية والعرب والشرح والسنن مما يدل على أولوية الفارابى وظهور بعض المصطلحات الموروثة^(٢). ومن مؤلفات ابن باجه يحال إلى رسالة "الوداع" تأكيدا على وحدة المذهب. ويضرب ابن باجه المثل بقتل المنصور عبد الله بن على وإن لم يفعل ذلك بيده على أن الآلة قد تكون متصلة بالفاعل وقد تكون منفصلة.

و- "وفى المتحرك" من الواقد يذكر سقراط أولا ثم أفلاطون ويحال إلى السماع الطبيعي^(٣). وسقراط هو نموذج الشهيد فى الوعى الاسلامى، خلود الروح وقناء البدن.

(١) الموروث: أبو نصر (١)، كتاب الموجودات المتغيرة، لغة العرب (١).

(٢) رسائل ص ١٢١-١٣٤، بنوى ص ١٥٧-١٦٧.

الواقد: أرسطو (٩)، السماع (٦)، الكون والفساد (٢)، الأثار العلوية، قاطيغورياس (١)، المفسرون (١).

الموروث: أبو نصر، المنصور (٢)، عبد الله بن على (١)، العربية، العرب، الشرع، السنن (١).

(٣) رسائل جـ ١ ص ١٣٥-١٣٩، بنوى ص ١٢٧-١٤٠.

الواقد: سقراط (٥)، أفلاطون (١) السماع (١).

ويضرب ابن باجه المثل بأفلاطون في الحركة والمتحرك في ذم المحرك القريب أو مدحه بدلا من زيد وعمرو. والمتقدمون عند ابن باجه أفضل من المتأخرين طبقا لتصور أهل السلف، ويحال إلى "السماع الطبيعي" في أن الحركة تكون أكثر من محرك واحد، وإلى الثامنة في أن المحرك الأول الحقيقي هو محرك الحركة السرمدية من خلال حركات الكائنات الفاسدة بالعرض لا بالذات وإلى كتاب "الحيوان" وكتاب "النفس" في أن المحرك الأول في الحيوان هو النفس. وواضح كثرة الاحالة إلى الطبيعيات. والاحالة إلى الواقد ضمن نظرية عامة في الإيضاح والاثبات عن طريق اللجوء إلى الأدبيات السابقة تأكيدا للقول بارجاعه إلى الشيء، وإثباتا للشيء بإبداع السابقين.

ومن الموروث يحال إلى أبي مسلم والمنصور ثم إلى جعفر والرشيد. ومن الأنفاظ الموروثة تظهر الشريعة^(١). ويحال إلى أعمال ابن باجه تأكيدا على وحدة المشروع الفكرى إما إلى الشرح مثل الحيوان والنفس أو إلى التأليف مثل رسالة "الوداع" و"سيرة المتوحد". والموضوع هو الله المحرك الأول تعشيقا للواقد في الموروث طبقا لظاهر التشكل الكاذب. ويظهر الأسلوب العربى الدينى فى لفظ "اللهم". كما تظهر بعض الموضوعات الدينية. وينقل ابن باجه مستوى التحليل الطبيعى للحركة إلى المستوى الإنسانى الشرعى، ومن ثم تصبح الأفعال خاضعة للوم والحمد على ما حرك بالعرض. وفرق فى العقاب بين القتل الخطأ والقتل العمد. ويضرب ابن باجه المثل بقتل الرشيد جعفرًا أو قتل المنصور أبا مسلم على اتصال الحركة وانفصالها وعلاقة اليد بالآلة.

ز- وفى الوحدة والواحد" من الواقد يذكر أرسطو أولا ثم أفلاطون ثم الاسكندر. ومن المؤلفات يحال إلى ما بعد الطبيعة أو الحروف أو الفلسفة الأولى، وكلها أسماء لكتاب واحد مرة مترجما، ومرة معربا، ومرة معبرا عن مضمونه، "الفلسفة الأولى"، وإلى كتاب الحروف للاسكندر. والموضوع أفلوطينى فى الظاهر، إسلامى فى الباطن، التوحيد. ولا توجد فلسفة إلا وتتناول الواحد والوحدانية تنظيرا للتوحيد. ويضرب ابن باجه المثل بأرسطو والفارابى على الوحدة والواحد مما يكشف عن حضور شعورى للواقد والموروث على حد سواء كتجارب حية فى الوعى الفلسفى التاريخى. كما يستحسن تشبيه أفلاطون وأرسطو وليس أرسطو وحده. كما ذكر أرسطو الكامل مجملا فيما بعد الطبيعة، مرسلا دون تفصيل فى المقالة الأولى من "الفلسفة الأولى". ويظهر مصطلح المرسل من علم الحديث. ويفصل ابن باجه الموضوع الذى شبهه أفلاطون بالدوائر اللولبية وأرسطو

(١) الموروث: أبو مسلم المنصور (٢)، جعفر، الرشيد (١)، الشريعة (١).

بانحناء الخط المستقيم. ويضرب المثل بالاسكندر على الصور الروحانية مثل زيد وعمرو، ويقوم تبع المذكورين في القرآن.

ومن الموروث يحال إلى الفارابي. ويذكر قوم تبع ولسان العرب. والدلالة على المعقولات غير معروفة في لسان العرب وربما في باقى الألسنة، وهو المعنى الكلى الذى يقال على كثيرين. فالمنطق مرتبط باللغة. واللغة العربية إطار مرجعى ومقياس للفكر. هناك خصائص للمنطق العربى نظرا لارتباطه باللسان العربى فى مقابل المنطق اليونانى وارتباطه باللسان اليونانى. ويستعمل ابن باجه الأسلوب العربى مثل زيد وعمرو للدلالة على الفاعل والمبتدأ والخبر فى النحو أو المحمول والموضوع فى المنطق^(١).

ح- و 'فى المعرفة النظرية والكمال الإنسانى أو فى الاتصال بالعقل الفعّال' يذكر من الواقد أرسطو والاسكندر^(٢). وأرسطو هو نموذج العقل الكامل مثل الأولياء، نموذج الاشرافى الكامل، وليس المنطقى الطبيعى، قراءة للواقد بألفاظ الموروث، ويستعير ابن باجه لوصف حالة كون الفعل فى ذاته وبذاته تشبيه الاسكندر للكامل ورجوع ذاته بذاته، الراجع والمرجوع، الذات والموضوع. فيكون روحانيا لا جسمانيا، ولا يحتاج فى وجوده إلى جسم ولا قوة جسمانية.

ومن الموروث يحال إلى أبى نصر والغزالى، ومن المؤلفات إلى كتاب الملة، ومن الفرق إلى الصوفية^(٣). وصورة الفارابى عند ابن باجه أنه شيخ يدعو إلى تصفية النفس بذكر الله وتعظيمه فى كتاب "الملة". ويؤيد ابن باجه الغزالى بالرغم من نقده له فى "تدبير المتوحد" وفى "رسالة الوداع". فطريق الصوفية، طريق الغزالى، موصل إلى المعرفة والسعادة ومأخوذ من النبى. ولا يوجد نقد لهم مع أن ابن باجه نقدهم من قبل مع الغزالى. فهو طريق قاصر على بلوغ الصور الروحانية. ويستشهد بقول بعض رؤساء المتصوفين "ولو وصلوا ما رجعوا". ومن ثم يغيب البرهان وإيصال الحقائق للناس. وقد أفرط الصوفية فى وصف هذه الحالة، الخيالات التى توجد فى نفوسهم حسب الظن دون التيقن من صدقها أو كذبها، مجرد نفس نزوعية لا تتصل إلا بالنفس الوهمية. ولا يتحقق

(١) رسائل جـ ١ ص ١٤٠-١٤٩، بدوى ص ١٤١-١٤٦.

الواقد: أرسطو (٤)، أفلاطون (٣)، الاسكندر (١)، ما بعد الطبيعة، الحروف، الفلسفة، الأولى (١).

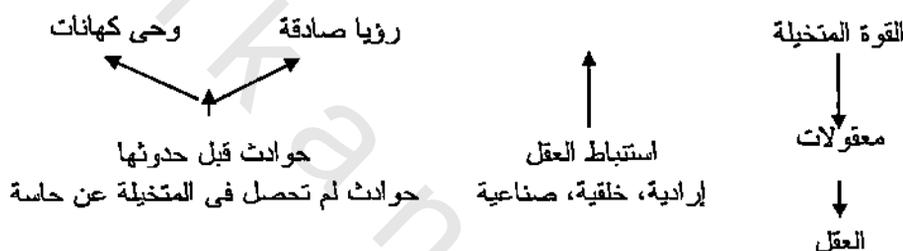
(٢) رسائل جـ ١ ص ١٥٦-١٥٩.

الواقد: أرسطو الاسكندر (١).

(٣) الموروث: أبو نصر، الغزالى (٢)، كتاب الملة (١)، الصوفية (١).

من الصدق والكذب بالنزوعى المنطقى الذى يصيب النفس بحالة الفرح. أما النزوعية فهي أقرب إلى البهيمية.

وتظهر بعض الموضوعات الدينية مثل الوحي والكهانة والرؤيا والفيض والملائكة والرسل والكتب. وهي موضوعات موروثه خالصة. قد تكون الرؤيا الصادقة بالوحي أو بالكهانة. ولا حرج من الاعتراف بأشكال النبؤات الأخرى. كما يتم العلم بالفيض على الملائكة، ومن الملائكة على عقول الانسان طبقا لاستعداده كما هو الحال عند الصالحين المخلصين المؤمنين بملائكته وكتبه ورسله، وعملوا بما يرضيه فيفيض الله عليهم بواسطة ملائكته فى الرؤيا وحوادث العالم العجيبة. كل ذلك فى موضوع النبوة وتركيب نظرية الاتصال عليها والخيال فى موضوع "بين العقل والقوة المتخيلة واتصال العقل الإنسانى بالأول" على النحو التالى:



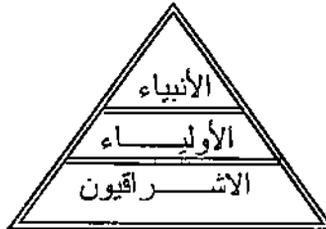
هناك إذن علاقة متبادلة بين العقل والخيال، كل منهما مصدر للآخر. وهو خليط إشراقى من الصوفية والغزالي وأبى نصر مع الاتصال مع الوحي.

ط- وفى "الفطر الفائقة والتراتب المعرفى" يظهر من الوافد أرسطو وحده، نموذجاً للمتدين الكامل الإشراقى، وتوارى أرسطو المنطقى الطبيعى^(١). ولا يظهر من الموروث إلا آية قرآنية واحدة. والفطر الفائقة المعدة لقبول الكمال الإنسانى معدة لقبول العقل الإنسانى. فالكمال هو العقل، قبول العقل الإلهى المستفاد من الله. وهى الفطر التى تعلم الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والسعادة والبقاء والسرور. والعلم رؤية ببيصيرة النفس، موهبة من الله. ويؤدى بلوغ الكمال الإنسانى إلى العلم الإلهى والكمال العقلى. وهما أيضاً بصيرة للأشياء. فلا فرق بين العلم النازل والعلم الصاعد، بين التنزيل والتأويل. ويتفاضل الناس فى هذه الموهبة التى هى بصائر القلوب. وأعظمها بصائر الأنبياء يعلمون بها الله ومخلوقاته دون تعلم أو اكتساب، علما كلياً بالله وملائكته. ثم يأتى

(١) رسائل جـ ١ / ١٧٥-١٧٨.

الأولياء بعد الأنبياء. يأخذ أصحاب الفطرة الفائقة علمهم من الأشياء، ما يوصلهم إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والسعادة القصوى. ويظنون كذلك حتى يروا العلم بأنفسهم، ويرونه ببصائرهم حسب درجات الموهبة من الله. فيأمنون بالعلم، ويلتذنون بالفكر، وينعمون بذكر الله، سواء نطقت بذلك ألسنتهم أم لم تنطق. يفيض الله عليهم بحسب الرؤيا جزءا يسيرا مما وهبه الله للأشياء من الاطلاع على المعنيات. ومن الأولياء صحابة النبي، وكل من أخلص وصدق. وبعد الأولياء طائفة وهبهم الله بصائر يتحققون بها تدريجيا حتى يصلوا إلى اليقين بالمخلوقات والعلم بالله وملائكته وكتبه ورسله والدار الآخرة. تيراوا من البدن، وحصل لهم الكمال وهى السعادة القصوى، بقاء بلا فناء، وعز بلا ذل. يدرك الإنسان أجل مطلوباته، وهو العلم بالله والالتذاد به، يرضى به ولا يحاكيه. ويفطرته وبصيرته يهتدى إلى علم الأنبياء فيصل إلى العلم الواحد من طريقين. ويفسر سورة الفاتحة فيجعل المنعمين عليهم الذين وهبهم الله المعرفة، والمغضوب عليهم الذين وهبهم الله الموهبة ولكن يتبعون هواهم، والضالون الذين عدمو الموهبة.

والرسالة كلها خطاب ديني مطعم بآية قرآنية، سورة الفاتحة، بالإضافة إلى آيات مرسله حتى أصبح موضوع الرسالة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، مضمونها للفقهى. تتأرجح بين الفطرة والاكْتساب كما هو الحال فى الأشعرية. لذلك كان الصوفية أدق عندما جعلوا الأحوال مواهب والمقامات مكاسب. كما تتأرجح بين المعرفة والوجود، بين العلم بالغيب والعلم بالواقع والمشاهد، بين الإيمان التعليمى والاستدلال الفعلى كما هو الحال فى حكمة الإشراق. تجعل قدرات الأنبياء نظرية أكثر منها عملية. فهل الأمر لذة المعرفة أم شقاء الجهاد؟ ويتصور ابن باجه مدينة إلهية قمتها الأنبياء ثم الأولياء ثم فلاسفة الإشراق والصحابة والأولياء ويستعمل مصطلحات الصوفية مثل الفناء والبقاء، ولغة اللذة والعشق، حرمانا من الدنيا وإشباعا فى الآخرة، تظهر وثائية مانوية وكأننا فى رسالة



الطير" لابن سينا أو رسائل إخوان الصفا. يفسر الفاتحة تفسيراً صوفياً صرفاً، والوحى على نحو إشراقى. والسؤال: كيف يكون هذا الظن والفلسفة يقين وبرهان؟ وتبدأ الرسالة بالفطرة الفائقة المعدة لقبول الكمال الإنسانى المعدة لقبول العقل الإنسانى ثم العقل الإلهى

وهو عقل مستفاد من الله. وتنتهى بالمعقولات الأولى التى يعملها الله للإنسان المعد لأن يعلم بها بالموهبة من الله. وهو دور منطقى، لا يعلم الإنسان الله إلا بالموهبة التى يعطيها الله له وكأن الله هو المهية للمعرفة وموضوع المعرفة، وأن الإنسان ليس له دور إلا السير فى الطريق المرسوم له.

٥- وفى الفيض والعقل الإنسانى والعلم الإلهى، من الوافد لا يحال إلا إلى اسم كتاب "إيضاح الخير" دون مؤلفه وهو منحول على أفلوطين أو ابرقلس. فالمهم الموضوع لا الشخص حتى ولو لم يتم التعرف عليه تاريخياً ونسبته إلى صاحبه. ومن الموروث لا يحال إلا إلى عيون المسائل للفارابى دون ذكر اسمه مقارناً بالغزالي فى تأويل الكتاب واتفاقهما فى الفيض من العلم الإلهى إلى العقل الإنسانى. وهو موضوع أقرب إلى روح أفلوطين الإشراقى منه إلى روح أرسطو المنطقى الطبيعى. الرسالة كلها وثنية الطابع. إذ يفيض الله من علمه على موجوداته ومخلوقاته العلم والعمل. فيتقبل كل موجود حسب مرتبته من كمال الوجود. والعقول تقبل من العلم حسب مراتبها، وكذلك الأجرام تقبل الأشكال والصور النفسانية حسب مراتبها، ومراتبها حسب أمكنتها. ولكل جرم سماوى خاضع للكون والفساد عقل ونفس. بالنفس يفعل الأفعال الجزئية المحسوسة على جهة التخيل. وبالعقل يعلم الإنسان العلوم المنزلة عليه من الله ما يتعلق بالماضى والمستقبل وما لم يشاهده بالعيان، غيب لا يطلع عليه إلا من يشاء من عباده بواسطة الملائكة. ويحدث العمل عنه فى الأجرام بواسطتها لأن أعماله بذاته عن علمه أو بتوسط عقلى أعلى من الإنسان. فالعمل فيض من الله مثل العلم وفيض على العقول والأجرام. وليس على الإنسان جهد أو إبداع. ونتيجة لذلك سينشأ الإيمان بالقضاء والقدر. الرسالة كلها تصرف ودعاء ودعوات. تحولت من المنطق الطبيعى إلى الفلسفة الإشرافية والمواعظ الأخلاقية. لا فرق بين ابرقلس والغزالي والفارابى وابن باجه. وفى البداية يحيل ابن باجه إلى القضاء والقدر لتقدير الفيض والعلم. وفى النهاية يتحسر على الضلال ويأسف للشغل بالأحوال والأهل. ويدعو القارئ إلى اعتنام التفرغ حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم^(١).

٢- آليات الإبداع. ويمكن جمع آيات الإبداع فى رسائل ابن باجه كلها فى منطق واحد. يظهر فعل القول كعادة متبعة فى أسلوب التأليف، الأقل منها لأرسطو، والأكثر

(١) رسائل جـ ٢ / ١٨١-١٨٥، بدوى: الأنطاقلونية المحدثنة عند العرب ص ١٩٥.

الوافد: إيضاح الخير (١). الموروث: عيون المسائل، أبو حامد (١).

للمؤلف أو للرد على الاعتراض مسبقاً "فإن قيل.. قلنا". المؤلف هو الذى يقول أساساً بضمير المفرد أو الجمع وليس فقط الآخر الفعلى أو الآخر المتوهم فى الاعتراض المسبق. وهو قول موجز وليس شرحاً أو إسهاباً. الإسهاب نقل، والإيجاز إبداع. وكثيراً ما يذكر القول بمفرده دون نسبته إلى أحد، الأنا أو الآخر. وقد يفهم أنه قول الأنا وليس قول الآخر من السياق وإضافة ضمير المتكلم المفرد أو الجمع لاسم فعل آخر. وقد يستعمل فعل القول كمبنى للمجهول. فالمهم ما يقال وليس من قال. وقد يخلو مقال بأكمله من فعل القول ومشتقاته مثل "تدبير المتوحد" لأنه لا يوجد فيه حوار بين الأنا والآخر بل تعامل مع الواقع المباشر^(١).

وقد يقصد المؤلف القول، ويكون للعبارة قوة "أقول" مع فعل آخر مثل: قصد، فرغ، وقف. ويظهر القصد والغرض باعتبارهما موضوع الفكر. لا يتعامل الفيلسوف مع القول بل مع القصد، والغرض من القول. لذلك يظهر فعل "قصد" واسم "غرض" كثيراً. وقد يضاف إلى القصد ضمير المتكلم المفرد أو الجمع. وقد يعبر عن القصد أو الغرض سلباً بأنه ليس كذا. ويتضح بالتأمل حتى تظهر المعانى القصدية^(٢). وتستعمل أفعال البيان فى الأزمنة الثلاثة لإظهار القصد. وكذلك تستعمل أفعال الظهور والكشف. فغاية البيان الظهور.

ويبدو المسار الفكرى وكأنه نظرية فى الإيضاح فى مشتقات لفظ البيان اسماً أو فعلاً، فى الأزمنة الثلاثة تأكيداً على تواصل المسار الفكرى. وقد يكتفى بالجمع بين زمانين الماضى والمستقبل لما كان الحاضر مجرد ممر من الأول إلى الثانى. تكشف كثير من التعبيرات عن المسار الفكرى لابن باجه وعن وحدة مشروعه الفكرى. يحيل الموضوع إلى موضوع آخر لمزيد من الإيضاح والتفصيل، يحيل إلى موضوع سابق أو لاحق. ويمكن تصنيف هذه التعبيرات طبقاً للزمان أو الموضوع أو العموم والخصوص. وأغلب الأحوال إلى الكتب المعينة فى الماضى. ويدل المستقبل على تأجيل تفصيل الموضوع إلى وقت لاحق. ويبدو من المسار الفكرى استنباط النتائج من المقدمات فى استدلال منطقى. ونظراً لطول العبارة استبدل بها المهندسون العلامات. وتظهر أنماط

(١) الوداع ص ١٢٩، اتصال ١٥٥/١٥٦/١٥٩/١٦٢، الوزير ص ٩٤، النفس ص ١١١/١١٨، الوحدة ص ١٤٥/١٤١.

(٢) إلى الوزير ص ٩٢، النفس ص ١١٦/١١٩، اتصال ص ١٥٩/١٦٣/١٦٤/١٧١، تكبير ص ٨٩، حسداى ص ٧٩-٨٠، النفس ص ١١٣/١١٦، الوزير ص ٩١، الوحدة ص ١٤٠/١٤٣، الوداع ص ١٥٢/١٢٤/١٢٥/١٣٠/١٣١/١٤٨-١٥٤.

الاعتقاد من شك وظن ويقين^(١).

وتتم الإحالة فى الماضى إما إلى مواضيع عامة سابقة أو إلى كتاب من الكتب المؤلفة سابقا أو إلى علم من العلوم التى تم التأليف فيها سابقا أو إلى الموضوع إجمالاً أو تفصيلاً. وقد تكون الإحالة إلى الماضى فى صيغة المبني للمعلوم لأحد مشتقات فعل القول أو بصيغة المبني للمجهول. وأحيانا تظهر إحدى مشتقات فعل البديان. وهنا ترتبط الإحالة بنظرية الإيضاح. وتكشف الإحالات إلى أعمال أخرى عن وحدة العمل كله أو وحدة المذهب الذى يميل إليه ابن باجه فى باقى أعماله لمزيد من البيان والإيضاح مما يدل على وجود مشروع فكرى عام متكامل لابن باجه. وأكثر ما يحال إليه: تدبير المتوحد، ثم رسالة الوداع ثم كتاب النفس ثم المقولات والحيوان والنبات. وقد يشير إلى العلم مثل العلم المدنى^(٢). والإحالة إلى كتاب النفس تأليفاً وليس شرحاً لأرسطو. فتحول الكتاب من أرسطو إلى الشراح إلى الموضوع أو العلم هو تحول من النقل إلى الإبداع. تكون الإحالة من كتاب النفس إلى النفس انتقالاً من الكتاب إلى الموضوع، خطوة فى التحول من النقل إلى الإبداع. ويتم نفس التحول عند ابن باجه انتقالاً من "كتاب التوحد" إلى "تدبير المتوحد". ويمكن عن طريق الإحالة إلى المؤلفات معرفة ترتيبها الزمانى. وواضح أن الإحالات إلى المتأخرة كثيرة ومعتمدة. وتدبير المتوحد من أواخر الكتب^(٣).

ومؤلفات ابن باجه لا تتفصل عن حياته. فكره قدره، وعلمه تجاربه، ولا يقتصر ذلك عليه وحده بل هى سمة عامة عند الحكماء منذ الكندى حتى ابن رشد. الحديث عن النفس، والعلم تجريبية. التعاليم الشفاهية بجوار المصادر المدونة، ليس استعراضاً ذاتياً أو خروجاً عن الموضوعية بل بياناً لنشأة العلم وتكوينه فى الشعور. ويكشف التطور الفكرى لابن باجه عن اشتغاله أولاً بالموسيقى ثم بالفلك. والموسيقى علم رياضى وكذلك الفلك

(١) تدبير ص ١٠١-١٠٥/١٠٢/١٠٩/١١٢-١١٣/١١٩/١٤١/١٤٦، الوداع ص ١٤٣/١١٦-١١٧/١٢٢-١٢٣/١٤٨-١٤٩، الغاية ص ١٠١-١٠٢، اتصال ص ١٦٠/١٦٦/١٦١، المتحرك ص ١٣٧، الوحدة ص ١٤٥، الوزير ص ٨٩، النفس ص ١١٢/١٠٥.

(٢) الوداع ص ١٣٤/١٣٨-١٣٩/١٤٢/١٤٧-١٤٩، تدبير ص ٩٥/٩٧/١٠٣/١٠٩/١١٣، الوقوف ص ١٠٧، اتصال ص ١٥٧/١٦١/١٦٧، الوزير ص ٨٩، الوحدة ص ١٤٣.

(٣) تدبير المتوحد (١٣)، كتاب النفس (٩)، رسالة الوداع (٧)، المقولات، الحيوان، النبات (١)، العلم المدنى (١)، المتحرك ص ١٣٦-١٣٩، الوداع ص ١١٣/١١٥/١٢٥/١٣٢/١٤٧/١٤٨/١٦٠/١٦١/١٦٦، قول يتلو ص ١٤٧-١٤٨/١٥١-١٥٢، تدبير ص ١٠٤/٤٠، الغاية ص ١٠١-١٠٢، اتصال ص ١٥٩-١٦٣، حسداى ص ٧٨-٧٩.

والهندسة. ويذكر أشبيلية مدينة الموسيقى والغناء مما يدل على الطابع الموروث المحلى للعلم والثقافة والفن. ثم اشْتَغَلَ بالعلم الطبيعي قدر اشْتَغَالَ بالمنطق اعتماداً على الفارابي. وتشمل التجارب الأسفار والأماكن والزيارات. فقد كانت المعرفة تأتي من الواقع المباشر في مرحلة التأليف كما أتت من النص في مرحلة النقل، وأنت من العقل الخالص في مرحلة الإبداع. كما ينقد ابن باجه سابقه ومعاصره. فهو مرحلة من وعى تاريخي وليس فقط من وعى اجتماعي. يخاور الماضي كما يحاول الحاضر. ويتجاوز الأمر مجرد الطابع الشخصي في التأليف، رسالة إلى صديق أو إلى فيلسوف، الكندي والمعتمض، ابن رشد والأمير، ابن باجه والوزير، ابن سينا والبلخي. يتحد الموضوع بالذات، والذات بالموضوع، والعلم بالتجربة، والتجربة بالعلم. ولا يعيب ذلك البداية الموضوعية بالعلم. فالعلم تجربة وحياء، هم بين قصر العمر وطولها. وأهم شيء في السلوك البشري هو الغاية. وهي التي وضعها الحكماء السابقون وأكد عليها أبو نصر. ومع ذلك منعت ندرة كتبه في الأندلس من الاطلاع عليها. لذلك يستأنف ابن باجه التأليف، يداعا لا نقلا، وذاتياً لا موضوعياً، وإن ما تركه أرسطو في الحادية عشرة من الأخلاق مجمل جداً لا يكفي. وهذا هو دافع التأليف، استكمال ما بدأه القدماء، الوافد أوالموروث، ويشند هذا الشجن، اللقاء والوداع، في رسالة الوداع. ولا ينفي ابن باجه تعلمه على أيدي المشاركة بالرغم من بعد المشرق. فالعلم يتجاوز المناطق والجهات، وإن لم يصبح المشرق، رمزاً كما هو الحال عند ابن سينا في "منطق المشرقيين" وابن طفيل في "أسرار الحكمة المشرقية" أو ابن عربي في "عقائد مغرب". والفيلسوف موقف معرض للمخاطر. البدن رقيق، والإنسان وصحبه يستطيع به الأسفار والتحرك واللقاء. ومع ذلك، الأخطار محدقة، أخطار سياسية واجتماعية، وإغراءات دنيوية.

ولأن العلم تجربة حية يخاطب المؤلف القارئ. فالتأليف عمل مشترك، رسالة متبادلة بين المعطى والمستقبل. وفي مخاطبة القارئ ويظهر قول المؤلف كما تظهر غايته وقصده حتى البيان والإيضاح. وهو القارئ العادي، دعوة له للمشاركة في نفس التجارب والتأمل في النفس لانتهاه إلى نفس النتائج مع غاية الأدب والاحترام له، وكأن ابن باجه يعبر عقلياً عن آية ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾^(١).

(١) الوزير ص ٨٨/١١٥/١٥٤/١٦١-٧٠/١٦٢، الوداع ص ١٤٣/١١٤، الوحدة ص ١٤٩، الغاية ص ١٠٢/٦٥/٨٩، الاتصال ص ٥٥-٧٢، تبيير ص ٦٥/٣٩/١٢٦، ابن حسداى ص ٧٧/٨٨/٩٦، النفس ص ١٠٨/١٢٠، النزوعية ص ١٢١، اتصال ص ١٧٢.

ويقوم الفن الشعبي أيضا على تجربة مشتركة بين الفنان والمشاهد مثل قراءة القرآن كتجربة جمالية مشتركة بين المقرئ والمستمع. ويترك للقارئ الاختيار بين طريقتين: طريق الكمال المادى بالآلات واليسار، وهو كمال العبيد حتى ولو كان الإنسان حرا. وهو كمال وهمى وإن بدا فى الظاهر كمال الصحة. هو كمال الفضائل الشكلية التى يخضع فيها الإنسان لمدير آخر سواه، فيخرج عن مرتبة الإنسانية إلى مرتبة أشرف الحيوان غير الناطق، كالأسد فى الجراءة. وقد يحدث الكمال بالصناعات العملية لخدمة إنسان آخر بتوسط مثل الأعداد للخيل أو دون توسط كالكلب. والأفضل الكمال النفسى وبالذات. وهو أشرف مراتب الكمال، عندما تستمد الذات وجودها من ذاتها. وهذا هو طريق الحكماء السابقين واللاحقين فى وعى تاريخى متصل، من الأنبياء إلى الحكماء، دون تجريح للقدماء أو غلق باب الاجتهاد على القادمين. هو خطاب لمن هو أهل له، اعتراف من حكيم إلى حكيم، وتوجيه من شيخ إلى مرید. وينتهى الخطاب بأية قرآنية مرسله عن هذا الوعى التاريخى من السلف إلى الخلف، من رضى الله عنهم ورضوا عنه، وفازوا بالفوز العظيم. طريق التأمل متصل قيل ابن باجه ومعه وبعده. يشير ابن باجه إلى معاصريه ولمن لديهم الفطرة على السير فيه. قد يكون القارئ متميزاً، وزيرا مثلاً، ومريدا طالب الحكمة مع الدعاء له بطول العمر والبقاء والعزة والعافية. يخاطب المؤلف القارئ ويجعله طرفا فى عملية الفكر فى تجربة حضارية مشتركة، ومشاركة المؤلف القارئ ودعوته له تجعل القارئ يكتشف الحقيقة بنفسه استجابة لدعوة المحبة والود والدعوة لطلب الكمال واقتناء الفضائل. وأفضل علم ما تم نقله شفاهياً من الشيخ إلى المرید. فان تعذر لقاء الأبدان يكون لقاء الأرواح عن طريق التدوين. إذا عزت الأذن حضرت العين. وأحيانا يكون العلم استيضاح المدون سواء من المؤلف أو القارئ مما يتطلب تغيير ترتيب العبارة والأسلوب على نحو أفصح. لذلك يشرح المؤلف لمزيد من الإقحام. ويرسل إلى القارئ المدون نفسه. فالعلم تبادل. بل إن المؤلف يسمح للقارئ بأن يحسن العبارة ويجعلها أكثر فصاحة وأنصع أسلوبا. فالقضية واحدة، والهدف مشترك. العلم إذن على ضربين: صناعى وطبيعى. الصناعى ما يتعلمه المتعلم من الآخرين، والطبيعى ما يكتشفه المعلم بنفسه. الأول داخل للنقل، والثانى خارج للإبداع. والعلم مشقة ومعاناة. ممكن بالرغم من زحمة الحياة وضيق الوقت وقصر العمر. العلم هداية من الله وتوفيق منه. فالمتعلم ليس فقط فى حاجة إلى الصدق الإلهى لأن العلم كله من الله وهو أسلوب التأليف منذ الكندى بالرغم مما فى الأسلوبين من عجمة لغوية وألفاظ عربية قديمة لم تستمر ربما لأنه أول فيلسوف بالمغرب مثل الكندى أول فيلسوف فى المشرق.

ولا يقل دور الناسخ عن دور القارىء فى صياغة النص. فالناسخ هو الذى يقدم النص، ويقطعه إلى فقرات، كل منها مسبوق بقال فلان بكتوبته أو بلقبه^(١). "قال"، "يقول" عادة من الناسخ لأنه جزء من الحضارة، وينتمى إلى النص، ويعتبر نفسه مسؤولاً عنه مسؤولية المؤلف. يتم ذلك مع الموروث والوفاة. تعبير "قال أرسطو"، لا يدل على تبعية لأرسطو أو تقليد لأقواله بل هى عادة تقطيع النص إلى وحدات صغيرة طبقاً للموضوعات. هو عمل إيداعى يدل على فهم تفصيلات الموضوع بتعبير المغاربة المحدثين. وقد يقوم الناسخ بإضافة مقدمة أو خاتمة قبل فعل القول. ويشعر الناسخ بأن ابن باجه مفكر مسلم ينتمى إلى الحضارة الإسلامية فيطلب رضى الله عنه. وهو يقطع كلامه فى بداية المقال وفى نهايته مع البداية بالبسملة والدعوة بالتوفيق من الله والنهاية بالحمدلة والترحم عليه.

ثالثاً: المجوسى، وابن البيطار، والطوسى، والفارسى، وابن الألعانى.

١- المجوسى: كامل الصناعة الطبية. ويسمى أيضاً "الملكى" لأنه مهدى لعصد الدولة كما هى العادة فى أمهات التأليف^(٢). وللمؤلف عدة ألقاب ومع ذلك فهو المتطلب أى الذى يمارس الطب دون أن يكون بالضرورة حكيماً. فالطب فرع من الطبيعيات من علوم الحكمة^(٣). ويتكون من جزأين، الأول فى الطب النظرى والثانى فى الطب العملى. الأول فى فلسفة الطب باعتباره من الطبيعيات. لذلك تتضمن مقالاته العشر المفاهيم الطبية الرئيسية مثل القوى والأفعال والأرواح والعلل والعلاقات والتمييز بين ما هو طبيعى وما هو خارج عن الطبيعى، وطرق الاستدلال^(٤). والثانى فى الطب العملى أى فى العلاج والأموية. وهنا تتغلب الأدوية المحلية العراقية والفارسية والهندية والبابلية. كما نقل الاحالة إلى أسماء الإعلام من الموروث أو الواقد. وهو أكبر من الأول من حيث الكم لأنه تجميع أكثر منه تنظيراً^(٥). وبالرغم من المطابع الشمولى للكتاب وتفصيلاته الشديدة

(١) أبو على (ابن سينا)، أبو محمد (ابن حزم)، أبو بكر (ابن الصائغ)، أبو نصر (الفارابى)، أبو الوليد (ابن رشد)، أبو يعقوب (الكندى)، أبو حامد (الغزالى)، قاضى القضاة (الباقلانى)، الأستاذ (أبو على النفاق).

(٢) المجوسى: كامل الصناعة الطبية (جزءان)، القاهرة ١٢٩٤ هـ.

(٣) وألقابه "طبيب زمانه، وفريد عصره وأوانه على بن العباسى المجوسى رحمة الله تعالى ونفع به أمين.

(٤) خاصة المقالات ٤ - فى ذكر القوى والأفعال والأرواح ٥ - فى الأمور التى ليست بطبيعية ٦ - فى الأمور الخارجية عن الأمر الطبيعى. ٧ - فى معرفة الدلائل العامة على الأمراض والعلل. ٨ - فى الاستدلال على الأمراض الظاهرة للحس وأسبابه. ٩ - فى الاستدلال على الأعضاء الباطنة. ١٠ - فى الدلائل المنفرة وأسبابها وعلاماتها.

(٥) الجزء الأول ص ٤٣٤، الجزء الثانى ٦٠٨ أى بزيادة حوالى الربع.

إلى أنه يحيل إلى السابق ويذكر به ويعد باللاحق ويوعد به^(١). ويغلب زمن الماضي على الحاضر والمستقبل. وأيضاً يبين الفكر نفسه بغية الوضوح. لذلك تكثر أمثال عبارة "وقد بينا" وقد "شرحنا"^(٢). كما تستعمل أفعال القول في ضمير المتكلم "فقول"، "فأقول"، "قلنا" في أقل القليل. ومعظم الفقرات تبدأ بالأشياء، العلل والأسباب^(٣). ويعتمد الملكي على بعض الاقتباسات تنتهي بعبارة "انتهى" التي تعادل قفل القوسين عند المحدثين^(٤). ويخاطب القارئ من المتخصصين في صيغة "اعلم ذلك"، وتكثر في الطب النظرى عن الطب العملى أو فى صيغة "افهم"^(٥).

وفى التصدير يصف المجوسى الحالة الراهنة للطب فى عصره. فأبقرط إمام الصناعة، حوى كل شيء فى كتاب "الفصول" إلا أنه سلك طريق الإيجاز حتى غمض كثير من معانى كلامه مما يحتاج إلى تفسير. وجالينوس مقدم فاضل وضع كتباً كثيرة ولكنه طول وكرر وجادل وعارض مما يحتاج إلى اختصار وتركيز فى كتاب واحد يوفى بغرض الصناعة. ولا يوجد كتاب وسط بين التقريط والافراط إلا "الملكى". وأوريناسيوس قصر فى كتابيه لابنيه ولعوام الناس. فلم يذكر شيئاً من الأمور الطبيعية والأسباب. وكذلك لم يذكر قوليبوس فى كتابه من الأمور الطبيعية إلا اليسير، وبالغ فى بيان الأسباب والعلامات وأنواع المداواة والعلاج باليد دون أن يتبع طريق التعليم. هذا فى الواقد.

وأما المحدثون أى فى الموروث فلا يوجد إلا كتاب هارون الذى وضع فيه كل شئ ولكن على طريق الإيجاز من غير شرح واضح. وترجمته سيئة تسمى على القارئ كثيراً من المعانى خاصة من لم ينظر فى ترجمة حنين. فكتاب هارون واقد أصبح موروثاً. ولم يذكر سراييون فى كتابه إلا المداواة والتكبير، وأسقط العلاج باليد، وترك كثيراً من العلل. ووضع مسيح كتاباً مثل هارون ونحا نحوه فى قلة شرح الأمور الطبيعية وغير الطبيعية مع سوء وقلة معرفته بالكتب السابقة. وهذه مرحلة متوسطة بين النقل

(١) وإذ قد ذكرنا، على ما ذكرنا، لو قدم الذى ذكرنا، وإذ قد أتينا ذكر، وإذ أتينا على ذكره، بما نكرنا أنفاً، نحن نذكر، بما سننكره.

(٢) وإذ قد بينا، وإذ بينا وشرحنا، وإذ قد اتيننا وشرحنا، ميبنا أسباب.

(٣) نقول (١٥)، أقول (٧)، قلنا (٥).

(٤) انتهى (١٠).

(٥) اعلم ذلك، اعلم ارشدك الله، فاعلم ذلك ترشد، اعلمه، فاقهم ترشد، فاقهم ذلك، فاقهم ذلك ترشد جـ١

(٧٥)، جـ٢ (٣٥).

والإبداع، مرحلة تأليف الأطباء السريان باليونانية أو السريانية.

ثم بدأت مرحلة التأليف عند الرازي في كتابه "المنصوري" حاويا كل شيء إلا أنه لم يستقص شرح ما ذكره، واستعمل طريقة الإيجاز والاختصار. ووضع في "الحاوي" كل شيء إلا أنه لم يذكر شيئا من الأمور الطبيعية ولا وجوه التعاليم. وتعنى الأمور الطبيعية المسائل النظرية كالأمزجة والأخلاط والأسطقات. ونقصه الترتيب إلى جمل وأبواب وفصول ولا أورد ما يوجبه القياس. وجاء عائق الموت قبل إتمامه مع أنه طوّل فيه بغير حاجة. جمع فيه ما قاله الأطباء، قداماء ومحدثين^(١).

وكرر فعل على هذه الحالة الراهنة للتأليف الطبى فى عصره بين الاطناب والايجاز، وبين النظرية والممارسة، وبين الوضوح والغموض أتى "الملكى" جمعا بين الطرفين، بالإضافة إلى الاعتماد على الطب المحلى فى العراق وفارس وليس فقط على طب اليونان^(٢).

ويحدد "الملكى" مناهج البحث الطبى أى النحو التعليمى عن طريق القسمة لأنحاء التعليم خمسة: التحليل بالعكس، التركيب، الحد، الرسم، ثم القسمة. فالتحليل بالعكس يقوم على وصف الشيء فى الوهم من أوله إلى آخره وهو التحليل ثم من آخره إلى أوله وهو العكس. والتركيب هو إعادة جمع الأشياء التى تم تحليلها فى الطريق الأول. والحد هو تصور الشيء ووضعها فى أجناسه وأنواعه وفصوله. والرسم هو وصف الشيء من أعراضه دون جوهره أى من كميّاته دون ذاته. أما طريق القسمة فهو قسمة الشيء إلى سبع جهات، قسمة الجنس إلى أنواع، وقسمة النوع إلى أشخاص، وقسمة الكل إلى الأجزاء، وقسمة الاسم المشترك إلى معانى مختلفة، وقسمة الجواهر إلى أعراض، وقسمة الأعراض إلى جواهر، وقسمة الأعراض إلى أعراض^(٣).

وتتم مخاطبة القارئ بصيغة "اعلم" لمشاركته فى العلم. فهو يكتب للمتخصصين. وتتخلل الكتاب بعض الرسوم التوضيحية للآلات الطبية، مزيدا فى الايضاح^(٤).

(١) السابق جـ ١ ص ٢-٩.

(٢) السابق جـ ١ ص ١٠-١١.

(٣) السابق جـ ١ ص ٤١/٤٢/٦٢/٧٢/٨٣/٨٧/٨٩-٩٠.

(٤) السابق جـ ١/٥٢.

ويتعادل فيه تمثل الواقد مع تنظير الموروث. ففي الواقد يتصدر أبقراط ثم جالينوس ثم أوريناسيوس ثم فولس وأنطاط وقوليبوس وأرسطو. ومن الشرق أنوشروان^(١). وغالباً ما ترد أسماء الواقد في التسميات والمصطلحات وكان المجوسى يعرف التسميات ويريد فقط إطلاق الأسماء عليها. ولما كانت الأسماء والمصطلحات فى الغالب يونانية عند أطباء اليونان تمت الاحالة اليهم. فالكتاب تأليف فى الموضوع أى الطب وليس شرحاً أو تلخيصاً أو جوامع لطب اليونان. ومع ذلك تظل الأسماء قليلة بالنسبة لحجم الكتاب وكأنه أقرب إلى الابداع منه إلى التأليف.

ومن المؤلفات يذكر كتاب "الفصول" و"حفظ الصحة"، ولأبقراط كتاب "تقدمة المعرفة". ويحال إلى "القمامة من الأطباء" إحساساً بتطور علم الطب من القمامة إلى المحيئين. ولا يذكر ديسقوريدس لأنه لم يكن قد تمت ترجمته بعد. ويستشهد بكسرى أنوشروان على أهمية العلم. فإذا كان النقل من الغرب اليونان فالوجدان فى الشرق الفارسي^(٢).

ومن الموروث يتصدر بطبيعة الحال اسم المؤلف على بن العباسى المجوسى ثم أستاذه أبو ماهر موسى المجوسى ثم عضد الدولة الذى كتب له المجوسى كتابه "الملكى" والكندى وهارون ثم حنين بن اسحق، واسحق بن حنين، ويوحنا بن سراييون، ومسيح، والرازى، ويحيى النحوى، ومحمد عليه السلام^(٣). وواضح أن الأطباء السريان كانوا مرحلة متوسطة بين النقل والابداع بالتأليف فى المنقول باليونانية أو السريانية أو العربية. ولا يذكر الكندى إلا فى العلاج وكأنه ليست له نظريات فى الطب^(٤).

ويظهر الموروث أكثر فى تصور العالم أكثر من أسماء الأعلام. فالطبيعة من خلق الله، وعلم الطب هو الكاشف عن الخلق. كما أن علم الطبيعة فى الكلام هو الكاشف عن حدوث العالم. ويبدو الخلق فى التصور الوظيفى للأعضاء. فكل شيء فى البدن من أجل وظيفة. والوظيفة هى الغاية. وهو ما يسميه علم الكلام العناية^(٥). لذلك كان الطب أكرم صناعة كرم الله بها عز وجل خلقه. فقد خلق ما خلق من أجل الإنسان. لذلك تكثر

(١) أبقراط (٣٠)، جالينوس (١٦)، أوريناسيوس (٢)، فولس، أنطاط، قوليبوس، أرسطو (١)، ومن الشرق أنوشروان (١).

(٢) إذا أراد الله خيراً جعل العلم فى ملوكها والملك فى علمائها، السابق جـ ٢/ ٢.

(٣) على بن العباسى المجوسى (١١)، أبو ماهر موسى بن سياد المجوسى (٤)، الكندى، هارون، عضد الدولة (٢)، حنين بن اسحق، اسحق بن حنين، ويوحنا بن سراييون، مسيح، الرازى، يحيى النحوى، محمد عليه السلام (١).

(٤) الملكى جـ ٢/ ٢٦٦/ ٥٧٥.

(٥) والله تعالى أعلم بالحال جـ ١/ ١٤٧/ ٩.

تعبيرات "الله أعلم"، "الله تعالى أعلم" خاصة في الطب النظري وتعبيرات "بإذن الله تعالى" في الطب العملي^(١). ويبدأ الكتاب بحمد الله والثناء عليه والشكر له، خالق الخلق بقدرته، وباسط الرزق بحكمته، والمنان على عباده بفضله، والمعطي لهم ما يقدرون به على إصلاح معاشهم في الدنيا والفوز في الآخرة. هو العقل سبب كل خير، ومفتاح كل نفع، والسبيل إلى النجاة، وفضله على سائر ما خلق من نبات وحيوان^(٢). وتنتهي كل مقالة "بحمد الله وعونه"، و"الله الموفق للصواب"، وغيرها من العبارات الإيمانية التي قد تطول وتقصر. وتغلب الإيمانيات أيضاً على المصحح، وذكر التاريخ الهجري. وتظهر البسمة وسط الكتاب في بداية بعض المقالات^(٣).

وهو أيضاً مهدي إلى السلطان لدرجة تسمية الكتاب الملكي^(٤). والسلطان والعالم قديماً الذي يشجع العلم والعلماء زينة البلاط خير من السلطان الجاهل حديثاً الذي يزين مجلسه بضباط الجيش والشرطة.

٢- ابن البيطار. واستمر تمثل الواقد مع تنظير الموروث في القرون المتأخرة، السابع والثامن في الطب والرياضيات. مثال ذلك "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" لابن البيطار (٦٤٦هـ)^(٥). وغرض الكتاب استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية

(١) والله أعلم جـ ١ (٢٧)، جـ ٢ (١٠٧)، والله تعالى أعلم (١٠).

(٢) إن شاء الله تعالى جـ ١ (١٨)، جـ ٨ (٩٦) بإذن الله تعالى جـ ٢ (٧).

(٣) مثل "الحمد لله وصلى وصلى الله على من لا نبي بعده سيدنا محمد وآله وصحبه جـ ١/٢١٧، والله المسؤول على معونتنا على تمام ما نقصد إليه، إنه ما على يشاء قدير، وهو حسبي ونعم الوكيل، جـ ١/٥٥٢، تم يعون الله وحسن توفيقه بحمد الله وعونه جـ ١/٨٤، والحمد لله على كل صلاة جـ ٢/٦٠٧، وبالله التوفيق جـ ١/١، جـ ١/٢، والله الموفق جـ ١/٢، المصحح جـ ٢/٦٠٧، عام ١٢٩٤ هـ.

(٤) فقد أسعد الله الملك الجليل العنصر، الفاضل الجوهري، عضد الدولة، بما خصه الله به من الفضائل النفسية والفضائل الشريفة، وأعطاه من العقل أوفره، ومن الفهم أغزره ومن الذهن أطفه، ومن الخلق أيهاه، ومن الخلق أرضاه، ومن الدين أحسنه، ومن الحلم أقصده، ومن الحياء أحمده، ومن الرأي أصوبه، ومن التدبير أجوده، ومن الفضل أكمله، ومن الشاء أجمله، ومن النفس أكبرها، ومن الهم أبعداها، ومن الشجاعة أبرعها، ومن النصيحة أبلغها، ومن البلاغة أتمها، ومن السماحة أعمها، ومن المنطق أخلاه، ومن الملك أسنائه، ومن العز أسماه، ومن الرتب أعلاها، ومن الكرامة أهنأها، ومن المنازل أرفعها، ومن النعم أسيغها، ومن القسم أجزلها، ومن السير أعلها، ومن السياسة أحكمها، وكمل له هذه الفضائل في المناقب ورتبتها وزينها بما قرن بها من محبة العلم والحكمة وأهلها والرغبة فيهما، والحرص على استفادتهما، والبحث والتفتيش عما وضعته العلماء في كل نوع منها، السابق جـ ١/٢/١.

(٥) ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، أربعة أجزاء في مجلدين، مكتبة المثني، بغداد. وله أيضاً الابانة والاعلام عما في كتاب المنهاج من الخلل والأوهام، جـ ١/١٦.

المستعجلة في الاحتياج وإسناد الأقوال لأصحابها، وإثبات صحة النقل فيما ذكره الأقدمون والمتأخرون وتصحيح ذلك بالمشاهدة كما سيكرر ذلك ابن خلدون في التحقق من روايات السابقين في أول "المقدمة"، واستبعاد التكرار إلا عند ضرورة البيان، والترتيب الأبجدي لسهولة المعرفة، والتنبيه على الأغلاط في الدواء والمراجعة والتصحيح، وذكر أسماء الأدوية بسائر اللغات وأماكنها، بالبربرية واللاتينية وهي أعجمية الأندلس المشهورة عند العرب وموجودة في الكتب وتشكيل الأسماء منعا للخطأ^(١). لذلك سمي "الجامع" بين الدواء والغذاء. جمع فأوعى، واختصر فاستقصى. وهو مجرد قاموس طبقاً للحروف الأبجدية مثل تفسيره للأدوية المفردة لجالينوس. وقد تختلط أسماء الأدوية وأسماء الأعلام نظراً لأن كثيراً من أسماء الأدوية منسوبة إلى أصحابها. واسم المؤلف نفسه مشتق من اسم المهنة، البيطار من البيطرة. ونظراً لكثرة التعريب يصعب للتمييز بين اسم الدواء واسم الطبيب فكلاهما يوناني. ويستمر الكتاب على وتيرة واحدة كالقاموس لا يقرأ كلياً بل يستفاد منه جزئياً وحين الحاجة.

ويحيل ابن البيطار إلى مؤلفه الآخر مما يوحي بوحدة عمله^(٢). ولا تظهر في الكتاب أفعال القول كثيراً لأن المادة العلمية خاصة أسماء الأدوية لا يقولها أحد. ويذكر الموروث رلويًا للوفاد في رولية مزدوجة كما هو الحال في التناص في الألب مثل قال "الرازي قال جالينوس"^(٣). وقد بدأت في القرن السابع حركة تأليف الموسوعات وتجميع المعلومات. فالذاكرة تنشط عندما يهين العقل. لذلك غلب على الكتاب التجميع في عصر المدونات والموسوعات في الأندلس وقت الصياح كما حدث في المشرق إبان الحكم العثماني.

وللتجميع مصادر متعددة مدونة وشفاهية مع بعض الاقتباسات لتعريف أسماء الأدوية دون تحليل^(٤). وأحياناً لا يذكر المصدر ويكتفى بفعل القول في المبنى للمجهول "قيل". وتذكر بعض كتب الرحلات العلمية مثل "الرحلة المشرقية"^(٥). وأحياناً يذكر الكتاب وأحياناً الكتاب وصاحبه وأحياناً المؤلف فقط ما يدل على التأرجح بين العمل وصاحبه.

لذلك غابت الدلالة، وقل الفكر نظراً لأن التيارات الفكرية كحركة في التاريخ قد

(١) السابق جـ ١ / ٣ ص ٤٦/٤٠/٢.

(٢) هو كتاب "الآبانة والإعلام بما في كتاب المنهاج من الخلل والأوهام" جـ ١ / ١٦.

(٣) جـ ٢ / ١٤٦.

(٤) جـ ١ / ١٧٦.

(٥) جـ ٧٤/٤ - ٣٩/٣، لدرجة عدم ذكر اسم مؤلفه ولم يعد كذلك في العصور التالية.

ضعفت أو توقفت. العلم هو تجميع المعلومات وفي الطب بوجه عام مع بعض التصحيحات والزيادات بناء على التجربة والقياس. ومن كثرة التجميع لا يكاد يظهر تعليق على منقول. وكتاب "التجربتين" مشهور في عصره.

والواقف في العمق، والموروث في الاتساع. فمن الواقف يتصدر ديسقوريدس ثم جالينوس ثم أرسطو ثم بديقورس ثم أبقراط ثم بولس، ثم روفس ثم هرمس من مجموع ثمانية وعشرين علما يونانيا^(١). ومن أسماء الكتب يحال إلى عشرات^(٢). ويذكر اليونانيون واليونان واللغة اليونانية ثم اللاتينية والرومية ثم انطاليا ثم لينوس وعشرات من البلدان من البيئة اليونانية^(٣).

أما الموروث فيتصدر الرازي مع بعض كتبه مثل "الحاوي" و"المنصوري" ودفع مضار الأغذية^(٤) ثم الغافقي ثم ابن سينا ثم الشريف الإدريسي ثم اسحق بن عمران ثم أبو حنيفة الدينوري، ثم ابن ماسويه ثم عيسى بن ماسة ثم التميمي ثم علي بن ربن الطبري ثم حبيش من حوالي سبعين اسما^(٥). ومن أسماء الكتب العشرات^(٦). وفي البيئة الجغرافية

(١) الواقف: ٢٨ علما: ديسقوريدس (١١٦٥)، جالينوس (٦٤٢)، أرسطوطاليس (٣٠)، بديقورس (١٩)، أبقراط (١٦)، بولس (١٥)، روفس (١٣)، هرمس (١٠)، كركراطيس (٣)، قسطس لوطوس (٢)، دياغورس، سطرطيس، منسيمس، فورس، قرانيطس، أريباسيس، ابراقيطوس، سادوق، ديوجينس، مالبينوس، دوفس، اريناسلس، بيواس، الاسكندر (نو القرنين)، أطورسس، قراطس الروماني، بليناس (١).
(٢) مثل: الفلاحة النبطية (٣)، رسالة إلى أغلوقن، كتاب الأغذية، كتاب التفسير في الفلاحة الرومية (١) كتاب الأسرار لهرمس.

(٣) اليونانية (٩٠)، اليونانيون (١٢)، اللاتينية، الرومية (٣) القيرس (٥)، إيطاليا (٤) أهل رومية (١٣)، ملك الروم (٢)، بلاد الروم، مصاليا، طورش، بلاد إيطاليا، أرمينيا، سوريا، فرقيس، ارقاما، قيدغرس، عالياء، فنادوقيا، انطيفورا، إلبقيا، أطروسيفاء أسبانيا، سردينيا، أطاكية، لوند، الروم، الأفرنجية (١).
(٤) الرازي (٣٥٣)، مع الحاوي (٦٠)، الحاوي (١٧)، المنصوري (٢٧) دفع مضار الاغذية (٤٥) (٤٥٧)، ابن سينا (٢٦٠)، مع القانون (٦)، الغافقي (٢٠٢)، الشريف الإدريسي (١٨٠)، اسحق بن عمران (١٦٠)، أبو حنيفة الدينوري (١٣٢)، ابن ماسويه (١٣٢)، عيسى بن ماسة (١٠٠)، المسيح بن الحكم الدمشقي (٩١)، التميمي (٧٣)، علي بن ربن الطبري، حبيش (٥٥)، ابن جلجل (٥٠)، أبو العباس النبائي (٤٨)، حنين بن اسحق (٤٥)، البصري (٤٣)، سليمان بن حسان (٣٥)، ابن سمحون (٣٠)، الاسرائيلي (٢٨)، المجوسي، ابن واقف (٢٤)، اسحق بن سليمان (٢٣)، ابن رضوان، أبو جريج الراهب، ابن سرييون صاحب فقه اللغة (٢٠)، ابن الجزار (١٨)، سفيان الأندلسي (١٧)، البلسي (١٣)، أبو العباس الحافظ (١٢)، الخليل بن أحمد، علي بن محمد (١٠)، محمد يعبدون ابن التلميذ (٧)، الكندي (٦)، حسين بن علي، ابن البطريق، الدمشقي، عيسى بن علي حكيم بن حنين (٥) ابن وحشية، أبو عبيد البكري، أمية ابن أبي الصلت (٤)، السعودي، ابن رقيا، الجاحظ (٣)، ابن حجاج =

تأتى الأندلس ثم الهند ثم مصر وفارس ثم المغرب وأفريقيا ثم الصين ثم البربر وفلسطين والترك ثم قبرص وعشرات من الأماكن الصغرى^(٢).

ولا يوجد إحساس قوى بالتمايز بين الوافد والموروث بعد أن أصبح الوافد موروثاً. كلاهما علم يتم تجميعه بصرف النظر عن مصدره ونشأته. وأحياناً تظهر بعض الأسماء التي كانت معروفة في عصرها ولكن شهرتها لم تستمر مثل باقى الأطباء الكبار. وأحياناً يذكر اللقب دون الاسم تحولاً من العالم إلى العلم.

من الوافد يمدح حنين بن اسحق لأن كان مدققاً فى علمه بلغة اليونانيين. وهو من أفضل النقلة فيها الا أنه لم يثبت فى هذا الموضع فزل بذلك جميع من أتى بعده من علماء عصره. وتكثر أعلام الوافد والموروث لدرجة أنه نقل عدد الصفحات الخالية منها. وأحياناً يذكر اسم العلم واحد مثل مسيح وأحياناً كاملاً مثل مسيح بن الحكم. وقد ذكر أرسطو راوبيا عن آخرين^(٣). ويظهر هرمس فى الطب وليس فقط فى الحكمة وكأنه شخص حقيقى مما يدل على التحول من الأسطورة إلى الشخص ومن الشخص إلى الأسطورة^(٤). ويكثر حضور مصر والمشرق فى المغرب على عكس المغاربة المحدثين أنصار القطيعة المعرفية، ومصر هى حلقة الاتصال بين المشرق والمغرب. كما يكثر حضور آسيا بالرغم من بعدها. ويعظم حضور الهند وفارس الجناح الشرقى للحضارة الإسلامية.

= الأسيلى، الخوز، ابن الصانع، على بن أحمد، أهرن القس، أحمد بن داود (٢) وحوالى ثلاثين اسماً كل منها مرة مثل ثابت بن قره، يونس الحرائى، قسطا بن لوقا، اسطفن بن باسيل، ابن سهلان، ابن جزلة. (١) مثل: التجريتان (٥٠)، الفلاحة النبطية (٤٠)، خواص ابن زهر (٣٢)، الرحلة، المنهاج (٢٥) الرحلة لأبى العباسى النبائى، المنخل التعليمى للرازى، العلل العادية للرازى، عجائب البلدان لابن الجزار، الكرمة لحنين، الرحلة المشرقية لأبى العباس الحافظ، السموم للكندى، الجوهرة، إصلاح الأدوية المسهلة، المغنى المفرد فى أوصاف الورد، الجامع الكبير للرازى، الكيموسين لحنين، الشراب للرازى، التكميل، دفع مضار الأغذية، الأدوية المسهلة، الأسماء الهندية، الاختصارات الاربعين، الجواهرى للطبرى، الكرمة، الترياق، السحائم، الارشاد.

(٢) الأندلس (١١٥)، الهند (٨٥)، مصر، فارس (٧٠)، المغرب، افريقيا (٥٠)، الصين (٤٠)، البربر (٣٥)، العرب، الروم (٣٠)، العراق (١٥)، الاسكندرية، اليمن (١٠)، للقاهرة (٧)، بيت المقدس، فلسطين، الترك (٦)، قبرص (٥)، وعشرات من الأسماء الأخرى مثل الحبشة (٥)، الصين، اليمن (٤)، أسبانيا، غرب الأندلس، تونس (٣)، شرق الأندلس، جبل لبنان، مراکش (٢).

(٣) جـ ١١/١٨/٦٤/ ٣، جـ ١١-١٠/ ٣- ٤٥/ ٢.

(٤) مرتبط بالواقع البيئى المحلى سواء فى الوافد أو الموروث. وقد يظهر ذلك سليماً مثل غياب الدواء فى منطقة جزائرية بعينها مثل المغرب أو الأندلس.

كما يحضر الجنوب، أفريقيا ويكثر الحديث عن البربر كما هو الحال عند ابن زهر وابن خلدون دون أدنى حرج كما هو الحال في هذه الأيام. كل ذلك يؤكد وحدة العالم الإسلامي كحضارة وفي نفس الوقت ظهور الخصوصيات الإقليمية في الطب الجغرافي أو الجغرافيا الطبية. علم مرتبط بالواقع البيئي المحلي سواء في الوافد أو في الموروث. وقد يظهر ذلك سلباً مثل غياب الدواء في منطقة جغرافية بعينها مثل المغرب أو الأندلس. ويتم الحديث عن الفلاحة الفارسية وهو غير الفلاحة النبطية^(١).

ولا يظهر ابن رشد كثيرا إما لنكته وضياح كتبه ولأنه لم يعش في التراث التالي له وإما لأن هذا هو أثره الفعلي في التاريخ، وأن تضخيم دور ابن رشد إنما كان من أثر الرشدية اللاتينية والفكر العربي المعاصر تبعية للاستشراق وهجوما على الجماعات الإسلامية المعاصرة باسم التنوير^(٢). والعجيب أن ابن زهر أكثر ذكرا منه وهو الذي قدمه ابن رشد وطلب منه تأليف كتابه "التيسير".

وأحيانا يقع التقابل بين الأنا والآخر، بين نحن وهم^(٣)، هو يقول وأنا أقول. وهناك إحساس بتطور العلم وتغير الزمان من الطب القديم إلى الطب الحديث^(٤). بل يتطور المؤلف نفسه من مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة، ويذكر الكندي اذى يكاد يتوارى في التراكم الفلسفي^(٥). وقد تغير الوافد القديم من اليونان إلى الوافد الحديث من الغرب أي الأفرنج إيطاليا وفرنسا شمال العالم الإسلامي. فيتحدث ابن البيطار عن بلاد الأفرنج كما سيتحدث ابن خلدون فيما بعد. فقد بدأت الحروب الصليبية، وعرف المسلمون حضارة الشمال^(٦).

ويذكر ابن البيطار أسماء المدارس الطبية المختلفة مثل أصحاب القياس وأصحاب التجربة، وعلى أساسها يقوم تصحيح الأقوال التي تبدأ بلفظ "زعم" لذلك يقول بعد وصف الدواء "وهو مجرب". وربما ترجع أخطاء الأقوال عن المفسرين والشراح اللغويين غير الأطباء^(٧). بالإضافة إلى ذلك هناك أيضا دراسة الحالة التي تقوم على مشاهدة. لذلك

(١) ج ١/ ٣٥ - ج ٢/ ١٤٧/ ٢٦.

(٢) مثل فرح انطون "ابن رشد وفلسفته" وتبعيته لرينان في كتابه "ابن رشد والرشدية".

(٣) ج ١/ ١٠٠ - ج ٢/ ١٦٢/ ٤٢ - ج ٢/ ٩٩/ ٦٨ - ج ٤/ ٢٠٩.

(٤) ج ٢/ ٦٦ - ج ١/ ٤٧.

(٥) ج ٤/ ٣٣.

(٦) ج ٢/ ١٥٥.

(٧) السابق ج ١/ ٣-١٠٧/ ٥٧/ ٤٨-٤٩ ج ٢/ ١٢٠ - ج ٤/ ٩/ ٧٣/ ٦٥ - ج ٣/ ٤٨/ ٣٢ - ج ٣/ ١٢٧/ ١٢٩.

ويمكن اعداد رسالة جامعية عن القياس والتجربة في الطب العربي.

يقول "ورأيتَه بحد البصر".

ومن ثم يقوم ابن البيطار بتحليل الموضوع وهو الأدوية على مستويات ستة: الدواء واسمه معرب أو منقول ولغته يونانية أو لاتينية وآثاره أى علاجه وطرق معرفته التجريبية أم النقل وأماكن وجوده فى الشرق أو المغرب أوفى بلاد الافرنج.

وبطبيعة الحال تبدو بعض العبارات الايمانية من خلال الكتاب بالرغم من قلتها بالنسبة لهذا العصر المتأخر الذى تزداد فيه نظرا لتغلغل الأشعرية والتصوف فى الثقافة الشعبية وربما لأنه مجرد قاموس. تبدأ الأجزاء بالبسملات وتنتهى بالحمدلات. ويستعمل أسلوب القرآن الحر مثل: لقد جئت شيئا قريبا. ويتدخل الله كعلة فاعلة للأمراض والعلاج والشفاء. فهو الذى خلق بنية الانسان وسخر له ما فى الأرض من جماد وحيوان ونبات وجعلها أسبابا لحفظ الصحة وشفاء الدار. وبعض الأدوية تم الارشاد إليها فى المنام. وكل شىء بمشيئته وإذنه. وقد ذكر الله البقل فى القرآن وأشاد به الشعراء. وتعرف الخليل بن أحمد على الموز فى القرآن. وتتم دعوة الله أن يحفظ البلاد^(١)، الأندلس ويعيدها إلى الاسلام بكرمه^(٢)، إما الجزيرة كلها أو ما ضاع منها فى الشرق. فالكتاب يحمل "مهموم الفكر والوطن". ويخاطب القارئ، فالعلم تجريبية مشتركة بين المؤلف والقارئ. ولا يمنع ذلك من طلب التأليف بأمر من السلطان^(٣).

٣- الطوسى. وفى القرن السابع الذى حمل لواءه الفكر الشيعى فى العلوم الطبيعية والرياضية والاخلاقية يمثل "التذكرة فى علم الهيئة" لنصير الدين طوسى (٦٧٢هـ) نموذج المتعادل بين الواقد فى العمق والموروث فى الاتساع^(٤). فمن الواقد يتصدر بطليموس ثم أرشميدس وإقليدس فحسب. ومن الكتب يتصدر المجسطى ثم السماء والعالم^(٥).

(١) ج٢/١-٣/٤٨/١٤٥/١٥٥/٥٢/٥٧/٨٩/٣٧/٤٠، ج٢/١٧٩/٤٠/١٢٦.

(٢) السابق ج١/١٣٧/٢١/١٢٧/٢-٣/١٤٥/٤-١٥٥.

(٣) وتشكر المطبعة خباب اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على، ومحمد باشا توفيق، وسعادة حسين كامل ناظر الجهادية ودولتو حسن باشا. وحضرة محمد افندى حسن وحضرة أبى العنين أفندى ج٤/٢١١.

(٤) نصير الدين الطوسى: التذكرة فى علم الهيئة، مع دراسة لاسهامات الطوس الفلكية، دراسة تحقيق د. عباس سليمان، دار سعاد الصباح، القاهرة ١٩٩٣.

(٥) الواقد: بطليموس (١٣)، أرشميدس، اقليدس (١). المجسطى (٤)، السماء والعالم (١).

الموروث: ابن سينا، ابن الهيثم (٢)، البيرونى، الرازى (الطبيب)، المأمون (١).
ومن الأماكن: جزائر الخالدات (٣)، البحر الغربى، الحبشة، المغرب، مصر، مكة (٢)، أندلس، بربة سنجار، الشام، مصر، البحر الجنوبي، بحر خوارزم، بحر طبرستان، بحرورنك، الخليج الأخضر، =

ويبدو ارتباط الطوسي ببطليموس شارحا مسار فكره، يدخل فيه ويعلل اختياره أحد الاحتمالين. ثم يتجاوز به مجرد ارتباط الجديد بالقديم، مثل ارتباط الاسلام بالمرحل السبوطى وارتباط السبوطى به مجرد ارتباط القديم، مثل ارتباط الاسلام بالمرحل السابقة للوحى، المسيحية واليهودية تطورا وإتماما لها^(١). ولما ارتبط الفلك بالهندسة تم الاعتماد على أرشميدس ومصادراته لبيان مساحة الدوائر بالتقريب وعلى إقليدس لبيان نسبة الكر إلى الكره. هدفه تنقيح بطليموس من سوء الترجمة والشروح، و"المجسطى" نفسه مجرد رواية عن الفلك القديم فى حاجة إلى برهان^(٢).

لم يتوقف شرح الوافد والتأليف فيه فى هذا العصر المتأخر بل ظهر فى نوع أبهى جديد هو التحرير أى إعادة الكتابة والعرض^(٣).

ومن الموروث يتصدر ابن سينا وابن الهيثم ثم البيرونى والرازى الطبيب والمأمون. ومن البلدان جزائر الخالدات ثم الحبشة والمغرب ومكة ثم الأندلس وبيرية سنجار والشام ومصر. ومن البحار والخلجان البحر الغربى ثم البحر النوبى وبحر خوارزم وبحر طبرستان وبحر درنك والخليج الأخضر والخليج الأحمر والخليج البربرى وخليج فارس. ويبين الخلاف بين ابن سينا والرازى تطورا للتراث الفلكى الموروث ويستأنف أحكامهم مثل حكم ابن سينا على بقعة بأنها من عزل البقاع وتفسير الرازى ذلك بأنه تشابه الأحوال لأنها فى خط الاستواء. كما يعتمد على ابن الهيثم ومؤلفاته وعلى البيرونى وطرقه فى معرفة مساحة الأرض. ويذكر طائفة من الحكماء فى عهد المأمون^(٤). وفى نفس الوقت ينفذ علم التنجيم وخرافات المنجمين وأهل الطلسمات ومزامعهم وإسقاطاتهم البشرية على الأفلاك: الدب والتنين والهواء والدجاجة والعقاب والأرنب والكلب والغراب والسبع والحية والفرس^(٥).

وقد يكون الدافع على تأسيس علم الهيئة هو التوجه القرآنى نحو الطبيعة ﴿تبارك

= الخليج الأحمر، الخليج البربرى، خليج فارس (١).

(١) التذكرة ص ١٥٧/١٥١-٢٠١/٢٠٢-٢٠٤/٢٠٤-٢٧٩/٢٨٠-٢٨٢/٢٨٨-٢٨٩/٢٩٣-٢٩٥.

(٢) السابق ص ٢٧٥/٢٨٨-١١١-١١٢.

(٣) لنصير الدين مؤلفات فى الوافد مثل: تحرير المجسطى لبطليموس فى علم الفلك، شرح كتاب الثمرة فى أحكام النجوم لبطليموس، تحرير كتاب ظاهرات الفلك لاقليس، تحرير كتاب أرسطرفس فى جرمى النيرين وبعديهما، تحرير كتاب الأكر وتحرير كتاب المساكن لثاوذوسوس.

(٤) السابق ص ٢٣٦-٢٣٧/٢٠٢-٢٠٤/٢٧٦-٢٧٨.

(٥) السابق ص ١٣٩/١٤٢/١٠٧/٢٠٧-٢٩٨.

الذى جعل فى السماء بروجا^١ والتأمل فى السماء والأرض. فلم الهيئة مرقاة منصوبة إلى السماء العلى. كما يرتبط فى تطوره بالفقه ومعرفة مواقيت الصلاة والصيام والحج. وقد يكون الدافع على الإبداع فيه الرغبة فى التنبؤ بحوادث المستقبل وتحويل التنجيم إلى فلسفة فى التاريخ من أجل التنبؤ بقيام الدول وسقوطها. كما تظهر صفات الله مستمدة من علم الهيئة مثل فاطر السماوات والأرض فوق الأرضين. ويبدأ النص بالبسملة وينتهى بالحمدلة لله مفيض الخير وملهم الصواب والصلوات على محمد المبعوث بفصل الخطاب وعلى آله خير آل وأصحابه خير أصحاب. ويذكر علم الهيئة لبعض الأحياء ويدعو لهم بتمام التوفيق وحسن المآب.

وقد ارتبط الطوسى بهولاكو وانقسم إلى حاشيته كما ارتبط ابن خلدون بتيمورلنك. وأسس له هولاكو مرصد مراغة، ولم يكتف بمجرد الدعوة لله والسلطان.

٤- الفارسى. ومع الطب ازدهر الحساب فى إيران عند الشيعة فى القرون المتأخرة التى ظن أهل السنة ان الفلسفة قد انتهت عند ابن رشد فى الأندلس. مثال ذلك "أساس القواعد فى أصول الفوائد" لكمال الدين الفارسى (٧١٨ هـ) مع شرح ابن الخوام البغدائى من نفس القرن^(١). وهى موسوعة رياضية مثل طابع الموسوعات فى هذا العصر حفاظا على التراث وتدوينه من الذاكرة. تتضمن علم الحساب فى العائلات وقوانين البيوعات وفى أنواع المساحات للسطوح والمجسمات وعلم الجبر والمقابلة وكيفية استخراج المسائل به. من شرح الواقد يتصدر إقليدس ثم أرشميدس المجسطى، وتاونوسوس، وفيناغورس^(٢). ففى كتاب إقليدس عن الأصول ومبادئ براهينها حوالى مائتى شكل ورسوم توضيحية، جعل مبدأ العدد الواقد. بين وسمى ووضح ما يعرف الطوسى. ويذكر اسم قشأ، وهو مهندس أراد معرفة مساحة أحد الأشكال. وقال بالكسور. وتستعمل أفعال البيان مع أرشميدس. وتذكر أكر تاونوسوس. وقد وصل العرض إلى درجة عالية من التجريد والتجميع تكشف عن فقد الدافع الحيوى فى الإبداع بالرغم من وضوح مسار الفكر، ومخاطبة القارىء، وشرح الغامض، وإضافة كثير من الجداول التوضيحية، واستعمال أفعال البيان فى الأزمنة الثلاثة^(٣). ويتم استعمال القياس أى النظر

(١) كمال الدين الفارسى: أساس القواعد فى أصول الفوائد، تحقيق د. مصطفى موالدى، معهد المخطوطات

العربية، القاهرة ١٩٩٤ شرح ابن الخوام البغدائى "الفوائد البهائية للقواعد الحسابية".

(٢) إقليدس (٢٤)، أرشميدس (٦). المجسطى (٢).

(٣) السابق ص ٤٠٨-٤١٥/٤٣٨-٤٣٩/٨٦/٢٢٤/١٥٢.

والاستدلال ولا يأتي الاستقراء إلا استثناء من القاعدة.

ومن الموروث تذكر الآيات ثم بنو موسى ثم الرسول ثم الكرجي ثم علمين أبي طالب وعشرات آخرين^(١). وتدل الآيات على الحساب الدقيق من الله وتأسيس علم الحساب بتوجه قرآني^(٢). وكلها في سياق واحد، الحساب الدقيق فعل الهى. وعرضه على بن أبى طالب بدهاءة. ويستعمل الموروث مثل أبى موسى فى كتاب "معرفة الاشكال البسيطة والكريمة" لشرح الواقد ومعه الكرخى فى كتابه "الكافى فى مساحة ذوى الاضلاع الكثيرة" وأبو يونس الموصلى والمسعودى، وهناك أيضا نقد متبادل فى الموروث مثل نقد الموصلى الكرخى بأنه أخذ أمرا جزئيا واستعمله مكان أمر كلى. واستعمل الشعر كوسيلة للتعبير عن الحساب عودا إلى المخزون العربى القديم^(٣). ويستلهم السرى الرقاء والسموأل وعروة بن الورد والمتبى وآخرين. ويتصف الله بصفات حسابية. فهو الذى لا يعده عد أو الطبيعة. وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده. وتظهر الصور القرآنية فى الأسلوب مثل « أنست نارا ». وبالرغم من الطابع التجريدى للنص الا أنه يكشف عن حياة المؤلف ومراحل عمره. فالعلم فى القلب والروح. وكما بدأ النص بالبسملة فإنه ينتهى بالحمدلة والصلوات على الرسول^(٤).

٥- ابن الألعانى. وفى القرن الثامن يمثل، "غنية اللبيب عند غيبة الطبيب" للألعانى (٧٤٩ هـ) عودا إلى الطب^(٥). من الواقد يتصدى أبقراط كبير الأطباء ثم جالينوس فاضل الأطباء. ولا يوجد موروث إلا التصور الدينى للخلق. فقد خلق الله الانسان فى أحسن تقويم، وخلق بدن الانسان من أعضاء متوازنة وأمشاج متعادلة وقوى ظاهرة وباطنة، وخص كل واحد بما لم يخص الآخر بناء على مبدأ التفرد الشخصى.

(١) الآيات (٥)، بنو موسى (٤)، الرسول، الكرجى (٢)، على بن ابى طالب أمير المؤمنين، ابن محمد الخوام البغدادى، ابن محمد الجوينى، ابن يونس، الموصلى كمال الدين، بهميتار الحكيم، الجوينى محمد بن محمد، الطوسى، عزيز مصر، الفارسى، قشاش، المسعودى، ومن الأبياء محمد، ويوسف.

(٢) الآيات هى: « ما يلفظ من قول إلا لنهيه رقيب عتيد »، « وكفى بنا حاسبين »، « وان كان مقال حبة من خردل أتينا بها »، « وهو أسرع الحساب »، « لتعلموا عند السنين والحساب »، « هو الذى جعل الشمس ضياء والتمر نورا وقدره منازل »، « اجعلنى على خزائن الأرض وإبنى حفيظ عليم ».

(٣) أساس القواعد ص ٤١/٤٢٦/٢٦٦/٤٣١/٤٤٠/٢٤٦/٤٢١/٥١٥.

(٤) السابق ص ١٤/٦٢/٥٧-٥٩/٦٧-٦٨/٥٨/٦٠/٢٦٢/٢٦٢/٣٠٨/٤٥٩/٤٦٩/٥١٢/٦٠٦.

(٥) محمد بن ابراهيم بن ساعد الأنصارى المعروف بابن الألعانى: غنية اللبيب عند غيبة الطبيب، وتحقيق صالح مهدي عباس، جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العربى، بغداد ١٩٨٤.

والعلاج قوة أودعها الله اليدن فى حال صحته كافية شافية فى دفع المرض لأن الأدوية لا تعالج الأمراض بل تساعد الطبيعة. وإذا ظهرت للطبيعة حركة إلى جهة قصد نحوها كما هو معروف فى العلاج الطبيعى. ويبدأ النص بالبسملة وينتهى بالحمدلة، وكل شىء بهدى الله وتوفيقه والصلاة والسلام على من بشر به المسيح بعد الكليم^(١).

رابعاً - داود الأنطاكى، والقليوبى، والمنذرى.

١- داود الأنطاكى. وقد استمر هذا النوع الأدبى حتى القرن العاشر فى:

أ- تذكرة أولى الأبياب والجامع للعجب العجاب" لداود الأنطاكى (١٠٠٨ هـ) والمشهور باسم "تذكرة داود" والذى أصبح فى الثقافة الشعبية دليلاً على الشفاء وفى الثقافة العالمية مؤشراً على الجهل والخرافات والطب غير العلمى والوصفات الشعبية مع أنه صورته فى التاريخ هو الحكيم الفيلسوف الماهر الفريد، الطبيب الحاذق الوحيد جالينوس أوانه وأبقراط زمانه، العالم الكامل، الهمام الفاضل الشيخ داود الضرير الأنطاكى، "نفعا الله بمؤلفاته أمين"^(٢). فهو الجامع بين الموروث والوافد. وهو طبيب ضرير. الجزء الثالث من عمل تلاميذه كتعليق وهو المملوء بالطب النبوى والطلاسم والذى طغى على جزئى الأستاذ لما فيه من إغراء شعبى وإغواء للناس^(٣).

والدافع على التأليف الجمع والاحصاء والحفظ والتدوين فى عصر الموسوعات فى القرون المتأخرة وفى نفس الوقت إعطاء مختصر وليس مطولاً طبقاً لهموم قصر العمر^(٤). وقد يكون الدافع هو الوطن ووضع الطب بين أيدي المسلمين بعد أن كان بأيدى اليهود وهو أشبه بالقاموس مثل "القانون فى الطب" لابن سينا فى الأدوية المفردة والحشائش" لديسقوريدس و"جامع مفردات الأدوية". "لابن البيطار" وتذكر أحياناً المصادر التى يتم منها التجميع مثل الفلاحة النبطية، وإرشاد اللبيب، جمعا بين رجوع الشيخ إلى صباه، شرح الأسباب، شرح القانون ويضم أربعة أبواب معظمها يبحث فى الكليات والقوانين، القانون لابن سينا والكليات لابن رشد. الأول كليات العلم والمدخل إليه لتصنيف العلوم، والثانى قوانين الأفراد والتركيب، والثالث المفردات والمركبات، والرابع الأمراض

(١) السابق ص ٢٠-٢١/٥٨-٥٩.

(٢) داود الأنطاكى: تذكرة أولى الأبياب والجامع للعجب العجاب (ثلاثة أجزاء)، نسخة مصححة على النسخة الأميرية المطبوعة عام ١٢٨٢ هـ.

(٣) السابق ج ٣/ ٢-١٨٣.

(٤) السابق ج ١/ ٣٢٢/١٨/١٠٣-١٠٤/١١٣/١٤٦/١١٦/٣٠٦ ج ٢/ ٦٥/٧٧/٢٠.

وعلاجها وهو أكبر الأبواب. والخاتمة نكت وخرائب ولطائف وعجائب للتشويق والتي طورها التلاميذ. وهو أفضل النصوص المتأخرة في علم المتقدمين. ومن هنا أتت شهرته عند العلماء. وكل مسألة عملية لها مقدمة نظرية. هناك البنية قبل الأبجدية^(١).

وتتقسم العلوم طبقاً لمناهجها إلى قسمين: الأول بالفيض والإلهام، والثاني بالتجربة والقياس. والطب من النوع الثاني. كما تنقسم من حيث تعلمها إلى ضرورية ومكتسبة، والطب من النوع الثاني. فالطب جزء من نسق عام للعلم، مرتبط بعلم النجوم والجغرافيا والأخلاق. يقوم على مقدمات نظرية فلسفية كلامية أولى قبل أن يكون علماً عملياً للممارسة والعلاج. لذلك ارتبط الطب بالفلسفة الأولى.

وهو ينقد أطباء العصر وينعتهم بالجهل. ويقيم الطب على التجربة والقياس. لذلك يكثر تعبير "ومن المجربات". ويقيم طب السابقين مثل الرازي. يقول ما هو أصح عنده ويرفض استدلالات إذا كانت صورة القياس باطلة. ومع ذلك سادته بعض الخرافات للربط بين الطب والفلك في صورة التتجيم خاصة لو كانت البداية بنظرية الفيض. والاعتماد على الأفلاك للشفاء عجز عن فهم الأمراض وعللها وأدويتها، بالرغم من أن الربط بين الطب والجغرافيا في الطب الجغرافي أو الجغرافيا الطبية تيار علمي. وفي العصور المتأخرة عندما توقف الإبداع وتم اكتشاف الأصول الأولى، النبوة وما قبلها في الشعر، ظهر الطب النبوي إما بمفرده أو بالتوفيق بينه وبين الطب العلمي. بل إن أرشميدس هو أول من أسس علم الطلسمات ربطاً للحاضر بالماضي، وللموروث بالوفاة مع كثير من الرسوم التوضيحية.

ويظهر الواقد في العمق والموروث على الاتساع^(٢). فمن الواقد يتصدر جالينوس ثم أبقراط مع الأستاذ ثم المعلم الأول والمعلم والحكيم ثم أفلاطون ثم هرمس وديسقوريدس اليوناني وأندروماخوس ثم إقليدس ثم ديموقريطس وآل إسقليبيوس والإسكندر وفيناغورس وحوالي عشرين آخرين^(٣). ومن الصفات يتصدر اليوناني مذكراً ومؤنثاً ثم الروم ثم

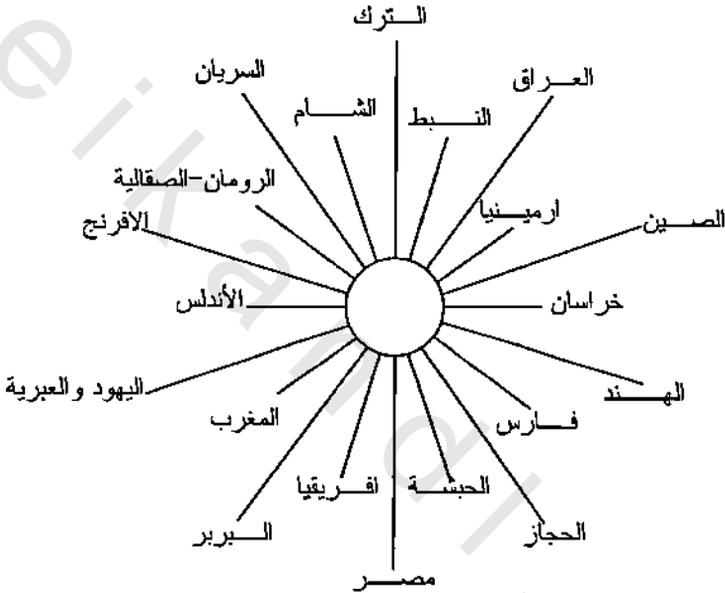
(١) السابق ج ٢/ ٧-٧.

(٢) الواقد حوالي ٢٥ علماً والموروث حوالي ٦٠ علماً.

(٣) جالينوس (٦١)، أبقراط (٣٣) + الأستاذ (٥)، المعلم الأول، العلم، الحكيم (١١)، أفلاطون (٧)، هرمس، ديسقوريدس اليوناني، أندروماخوس (٥)، إقليدس، الإسكندر (٤)، آل إقليبيوس، فيثاغورث، ديموقريطس (٣) أفلاطونيات (٢)، أرسطبيوس، روفس، إسقليبيوس، فيلاطوس، إفراتيس، سوماخوس، أنطاغوراس. أفليون، فولس، بطليموس، سمانيطس الأنطاكي، فورفريوس (١)، اليونانية=

السريان خاصة باللسان أو القوم. ومن الفرق الحكماء ثم الصقالية ثم القدماء والأطباء والفلاسفة وحكماء النصارى وبعض الأطباء وحكماء مصر والأقباط. ومن الأسماء المعربة الأرتماطيقى، جوماطريا، قاطيغورياس. ويدل تحليل الألقاب مثل الفاضل لأبقراط وجالينوس على مدى تعظيم القدماء. والبعض منهم أشبه بالرسل عليهم السلام مثل آل اسقليبوس وهرمس عليهما السلام. ويذكر الواقد البابلي، حكيم من بابل يسمى دويدرس البابلي. ويبدو أن آدم تراث قومي عند الكلدانيين وكما ظهر عند البيروني.

ويظهر الواقد في أسماء للدواء من الشمال والجنوب والشرق والغرب على النحو الآتي:



ومن الموروث يتصدر ابن سينا والشيخ ثم بختيشوع ثم الرازي وأبو الفرج ثم النفيس ثم ابن التلميذ ثم ابن رشد والكندي وابن ماسون (ابن النفيس) وابن البيطار وأبو البركات الطبيب والشريف والترمذي وابن عباس والحاكم وإدريس في المرتبة السادسة ثم عشرات الأطباء الآخرين والصحابية والفقهاء والمؤرخين والحكماء والخلفاء وزوجات

- (٧٧)، الروم (٣٠)، السرياني (١٦)، اللاتينية (٧)، الحكماء (٦)، الصقالية (٢)، المتأخرون، القدماء، الأطباء، الفلاسفة، حكماء النصارى، بعض الأطباء، حكماء مصر، الأقباط (١)، ومن الأماكن: إنطاكية (٣)، الإسكندرية، البندقية، الإغريقية (٢)، سقلية، الإفرنجي (١). الأسماء المعربة: الإرتماطيقى، جوماطريا، قاطيغورياس (١).

الرسول والأنبياء الأقل تكراراً^(١). ومن أسماء الأماكن يتصدر الهندى ثم الفارسى ثم العربية ثم الشام ثم العراق ثم المغرب ثم البربرى ثم أرمينيا والعبرية ثم الزنجى والحجاز والأندلس وسرنديب ثم بغداد والقدس ثم إفريقيا وآخرين من الأماكن الأقل تكراراً^(٢). ويتصدر الحديث القرآن، وكلها فى الطب للنبوى. تتعلق بالخلق والحكمة والحمى والمرض والعدوى ووسائل العلاج والانتقال على الله^(٣). ومنها حديث بالفارسية "اشلم درد" ومعناه وجع البطن^(٤).

ويبدو مسار الفكر حتى فى التجميع، الإحالة إلى السابق. وكما يبدأ الكتاب بالبسملة ينتهى بالحمدلة ويعطى صفات للذات تتعلق بالطب مثل مبدع مواد الكائنات بلا مثال سبق، ومخترع صور الموجودات فى أكمل نظام ونسق، ومنوع أجناس المزاج الثانى نتائج الأوائل، ومقسم فصوله المميزة على حساب القواعل والقوابل، والمجرب المعيشى. وكل شىء بحمد الله وتوفيقه وبمشيئته، له الحكم فى كل شىء. وهو الشاهد، لا ضرر ولا

(١) ابن سينا (الشيخ) (٣٣)، بختيشوع (٧)، النفيس (٦)، الرازى، أبو الفرج (٥)، ابن التلميذ (٣)، ابن رشد، ابن ماسويه، أبو الفرج، ابن البيطار، الكندى، أبو البركات الطيب، ابن النفيس، الشريف، المسيحى، إندريس (٢)، الطبرى، الزهراوى، ابن الصلاح، ابن وحشية، ابن زكريا، الشافعى، ابن القف، المعلم الثانى، على بن أبى طالب، ابن جبريل الرشيد، ابن حنين، جعفر الصادق، ابن قره، ابن سرايون، فخر الدين، البغدائى، الفارسى، ابن جبريل، الشريف، جرجس، اسحق بن يوحنا، الجرجانى، ابن جميل، ابن الملوك، الطوسى، عائشة، كف مريم، الصانع، ابن الجزائر، ابن الأشت، أبو حنيفة، الشريف، جرجس بن يوحنا، أمين الدولة، الفاضل بن يحيى جزلة، الحانق الفاضل محمد بن على الصورى، اخنوخ، سليمان، ابن السنى، أبو نعيم، صهيب، أحمد، أبو هريرة، البزاز، رحمون بن موسى اليهودى (١).

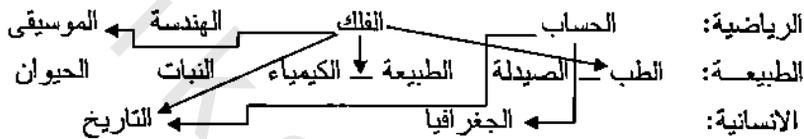
(٢) الهند (١٣٤)، مصر (٩٩)، فارس (٧٨)، الصينى (٤٠)، العربية (٢٥)، العراق (١٧)، المغرب (١٥)، بربرى (١٢)، أرمينيا، العبرية (٨)، الزنجى، الحجاز، الأندلس، سرنديب (٤)، بغداد، القدس (٣)، إفريقيا (٢)، نيسابور، سوس، القازم، السودان، دجلة، جحون، عجمى، كرمانى، خراسان، النبطى، اليمن، حلب سجستان، بابل، خوزستان، نيار بكر، جزيرة العرب، (١). أسماء الفرق: النصارى (٣)، الترك (٢)، جل المحققين. الكلدانيون (١).

(٣) الحديث (١٥)، القرآن (١). والأحاديث مثل: الحمى قطعة من النار نأطفوها عنكم بالماء البارد، الحمى من فيح جهنم فيردوها بالماء، ما من عبد يعمد فى الإسلام أربعين سنة إلا حرق الله عنه أنواع المرض، الجنون والجنم والبرص، لا عدوى ولا طيرة، فمن أعدى الأول، كل باسم الله عليكم بالأبكار فإيهن أعذب أفواها.. وارض بالسير، هلا بكرا، عليكم بأبوال الإبل البرية وألباتها ص ١١١/١٣٠/٢ / ٤/١٠٠/٤٣/٤١/٦٥/٦٩

(٤) السابق ص ٨٠/٢.

ويختلف الترتيب الأجدى نظرا للاعتماد على العقل الخالص. تظهر روح إخوان الصفا من جديد، الكل فى الكل. ويكثر تقييم التراث الطبى السابق والحكم بالصحة والبطلان والصواب والخطأ. ويظهر التمايز بين الأنا والآخر فى أفعال القول، "أنا أقول" (١).

وكما بدأ الفارابى بإحصاء العلوم بنهى داود أيضا بتصنيف العلوم ووضع الطب فيه. فالطب جزء من العلوم الطبيعية كالصيدلة والكيمياء والنبات والحيوان والطبيعة، وعلى صلة بالعلوم الرياضية كالحساب والفلك والهندسة والموسيقى. وكلاهما على صلة بالعلوم الانسانية كالجغرافيا والتاريخ بل وبالعلوم الشرعية مثل علوم الحكمة الالهية الكلامية والفقهية، العقيدة والشريعة، النظر والعمل على النحو الآتى:



ويتضح من ذلك أهمية الفلك وأثره على العلوم الطبيعية كالطب والصيدلة والطبيعة والكيمياء بل وعلى الموسيقى، وأهمية الحساب للجغرافيا والتاريخ. والأعلى هو الذى يؤثر فى الأدنى مما يعطى الأولوية للعلوم الرياضية على الطبيعية والانسانية. كما ترتبط العلوم الرياضية بعضها ببعض مثل الفلك والموسيقى. فالكون نغم، والنغم روح. الطبيعة والروح لغة واحدة. شرف العلم طبقاً لمرتبته أى لشرف الموضوع. وهو الأعلى الذى يجمع بين المراتب الثلاث أو لجمعه بين مرتبتين أو لمدى الحاجة إليه فى مرتبة واحدة وهو المستوى الانسانى (٢). ويحتاج الطبيب إلى كل هذه العلوم. فهو من علوم الحكمة. البداية من أعلى. كل علم يؤدى إلى الآخر فى نسق استنباطى واحد. الشريعة قاموس إلهى، وجزء من نسق العلم. فالشريعة سياسة الأرواح كما أن الطب سياسة الأبدان. ولا فرق بين العلوم العقلية الرياضية والطبيعية والانسانية والعلوم النقلية. والنبوة جزء من منظومة العلوم.

ويتضح ذلك النسق فى مقدمة الكتاب وتبويبه. إذ تشمل على استنباط الطب من الحكمة. ثم تعالج الأبواب الثمانية الكلليات، والأسباب، والأحوال والعلامات، والقوانين

(١) السابق حـ ١/٤١/٥٩/٦٤/٤٤/١١٢.

(٢) النزعة ص ١٠-٢٦.

والوصايا. وهي كلها أمور حكمية. وأخيراً يظهر علم الطب الخاص في الأمراض الباطنة عضواً عضواً، من الرأس إلى القدم، من أعلى إلى أدنى، وفي الأمراض الظاهرة^(١). وداود مثل ابن سينا الرئاسة في القلب على عكس أبقراط وجالينوس حيث الرئاسة الدماغ، مما يعبر عن جوهر حضارتين، القلب والعقل. ويرتبط علم النفس بعلم الطب لوضع علم الطب النفسى أو علم النفس الطبى، أو علم نفس الحواس^(٢). وهنا يدخل السحر لأنه من أثر العالم العلوى على العالم السفلى. والفراسة جزء من الطب، معرفة الأمراض عن طريق قوانينها الحسية، معرفة الداخل عن طريق الخارج.

ويعتمد على القياس والتجربة لبيان وحدة الوحي والعقل والطبيعة. ولا ريب من القياس والتجربة على الحيوانات من أجل معرفة شخصية الانسان. لذلك تكثر عبارات "وهذا من مجرباتنا"، "ومن المجرب فيها"... الخ. وتظهر العبارات الدالة على مسار الفكر فى هذه المرحلة المتأخرة مما يدل على أن الفكر لم يتوقف حتى فى عصر الشروح والملخصات. وهى العبارات الدالة على ما يتم وما سيتم^(٣). والعمل وحدة واحدة بالرغم من قلة الاحالات إلى مصادر أخرى مثل "كتاب البلدان". ويظهر أسلوب الاعتراض والرد عليه مسبقاً أسوة بالعلوم العقلية. وفى نفس الوقت يخاطب القارئ لمشاركته فى الفكر والاستدلال^(٤).

ومن الواقد يتصدر جالينوس ثم أبقراط ثم المعلم والحكيم باللقب وليس بالاسم ثم فيثاغورس وفوفوريوس ثم بطليموس وأفلاطون وديموقريطس وديسقوريدس وأندروماخوس وروندس وأنباذقليس وسقراط وخطافورس^(٥). كما تظهر صفة يونانية كثيراً مما يدل على التمايز بين الواقد والموروث. ويشار إلى بعض الكتب مثل أسطرنوميا وأرثماتيقي وكتب السماع، ومن أسماء الفرق يظهر الحكماء على الاطلاق دون تحديد واقد أو موروث ثم الفلاسفة. كما تظهر أسماء أماكن مثل رومية والافرنج.

(١) الكتاب الأول من المبادئ العامة للطب مثل المزاج والأخلاق والعناصر. والثانى أفضل من الأول تنظيراً أو تركيزاً ويخلو من إضافة الطلاب. والجزء الثالث الذى به السحر والخرافة من إضافة الطلاب.

(٢) السابق حـ ٢ ص ١٠١/١٨١/٦٢. حـ ٣ ص ١٧٩/٣٤/٢٩. ١٨١.

(٣) السابق حـ ١ / ١٢٧/٩ / ١٨١/١٧٢/١٢٧/٩. ٢٢٩.

(٤) السابق حـ ١ / ٣٥/٩ - ٣٦/٤٩/٥٧/٨٨/١٥١/١٧٣/١٧٤/١٧٨/١٧٩-١٧٩/١٩٣/١٩٦/٢٢٤/٢٣٦ / ٣٠٩ حـ ١٠/١٠/٢ - ٤١/٣ - ١٦٠/١٥٢/٤٧.

(٥) جالينوس (٣٤) أبقراط (٢٩)، المعلم (١٨)، الحكيم (٩)، فيثاغورس، فرفوريوس، فليمون الرومى، الطرطوسى (٢)، بطليموس، أفلاطون، ديسقوريدس، أندروماخوس، مظافورس، روفس، أنباذقليس، سقراط، اركيغانس، هرمس (١).

وما زالت بعض الألفاظ اليونانية المعربة حتى هذا العصر المتأخر مثل أسطفورياس أى المنزل ولوازمه. ولم يعد لفظة الحكمة يشير إلى الواقد بل الحكمة ذاتها دون تمايز بين الواقد والموروث. ونظرا للبعد عن الواقد يتم التعريف بالبعض فان أندروماخوس من المشائين، وفوطاغورس يعنى صاحب المرتبة أتى بعد أرسطو. وتقل بعض النصوص المترجمة. بل قد يخفى اللفظ الواقد ولا يبقى إلا الموروث قبل السياسة الملكية والسلطانية. وعندما يشار إلى جالينوس فليس المقصود بداية الواقد عند اليونان بل استمرار تراثه عند المتأخرين، من حضارة إلى حضارة^(١).

ومن الموروث يتصدر الشيخ ثم أبو الفرج المالطى ثم المسيحي ثم الرازى وصاحب الحاوى والكامل ثم الصابى ثم المعلم الثانى^(٢). والشيخ ابن سينا من أتباع المعلم الأول وهو معلم الطب. وتذكر أقواله فى الشفاء. والرازى والمعلم الثانى أهم من ابن رشد. وتذكر الألقاب قبل الأسماء فى الموروث أيضا مثل الصابى، المالطى وليس فى الواقد فقط. ولا تظهر أعلام أخرى مثل ابن النفيس. ويوصف الرازى بأنه من الاسلاميين إحساسا بالتمايز بين الموروث والواقد؛ كما أن جالينوس من اليونانيين. ومن أسماء البلدان يظهر العدد الهندى ثم الدار صينى ثم الفارسى ثم الرومى ثم مصر والأرمنى ثم الحبشة والعرب والحجاز والشام وصفا للأدوية ومصادرها. ومن الفرق يذكر حكماء الهند وحكماء النصارى وأهل الشرع والمتأخرون وأهل الطبيعة ومحققوا الفلاسفة. وتظهر بعض الموضوعات الكلامية مثل الأجال والأرزاق. وتستعمل بعض المفاهيم الأصولية مثل عموم البلوى.

ويظهر اتفاق العلم والدين، القرآن والطب، الحديث والعلاج فى هذه النصوص المتأخرة. الله حكيم وضع الحكمة فى الطبيعة وهى أصول الطب. فكل ما يحدث فى الطبيعة من تغير يفنقر إلى الإيجاد الإلهى. وفى ظواهرها عجائب الحكمة الإلهية. وحوادثها من مقتضيات عناية الحكيم^(٣).

(١) النزهة ص ٩-١٠/٢٤٨/١٥٩/٢٠٩.

(٢) الشيخ (١٤)، أبو فرج المالطى (٢٦)، المسيحي، الرازى وصاحب الحاوى والكامل (٧)، الرازى (٦)، المعلم الثانى (٥)، ابن رشد، السهروردى، أبو البركات، يوحنا، الامام، بختيشوع، السويدى، سليمان، آدم (١)، عود هندى (٢٠)، دار صينى (٩)، الفارسية (٥)، مصر، الروم، الحجر الأرمنى (٤)، الحبشة، العرب الحجاز، الشام (١)، أهل الطبيعة، محققوا الفلاسفة، أهل الشرع، المتأخرون، حكماء النصارى، حكماء الهند (١).

(٣) السابق ١-٣٥/٨٣/٢٠٩/٢٤.

يساعد الطب على الإيمان كما يساعد الإيمان على الطب. التوفيق بين الدين والعلم ممكن، والخلاف بينهما فى الإيجاب أى فى الضرورة. فى العلم موجباته الاسباب، وفى الإيمان موجباته الحكمة الالهية. فإذا قال أهل الشرع أن ما يحدث فى الطبيعة بقدرة الله والطاقة وصناعته فذلك لا يناقض العلم، وإنما الخلاف فى الإيجاب. فإذا رأى الرسول الغيب فإن ذلك يُعتبر نقداً للحسين الذين يقصرون المعارف على الحس. وكان أول ما يعتبر به الحكماء التشريح لأنه يزيد الإيمان بالصانع الحكيم ويرشد إلى مواقع الحكمة كما لاحظ ابن سينا.

وتظهر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لتفسير الطب أو ليفسرهما الطب وذلك مثل آية التطور ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ . وهو ما عادل التفسير العلمى للقرآن الآن، ومثل آية ﴿ فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ فلا خلاف بين التطور والشرع. وإذا نهى الشرع عن البحث فى الروح ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ فإن الغاية من هذا الزجر حب الاستطلاع وبالتالي الحث على العلم، والنفس مولعة بالبحث عما نهيت عنه. وقد يكون الهدف هو البحث فى البدن. فالطب هو علم الابدان كما أن الدين هو علم الأرواح. وقد أشار القرآن إلى علم الفراسة فى آية ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾. وفى الحديث "إن خلق أحدكم ليجمع فى بطن أمه أربعين يوماً" مما يدل على التطور فى الزمان قبل الولادة وبعدها. الطب مصداق للحديث^(١). وفى الحديث، "تداووا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء"، "الدواء من الداء". فانه هو سبب المرض والعلاج^(٢).

وفى البسملات والحمدلات تظهر وحدة الحكمة الالهية مع الحكمة الطبيعية. فالأجرام تسجد لله صاغرة، والأخلاق تمترج بحكمته خادمة له متصاغرة. وأنعم الله على الأعضاء ببعث الأرواح، وجعل الأفعال غايات القوى، واستمداد العصمة والتوفيق من واهب العقل. والله أعلم بحقائق الأمور. وكل شئ يتم بمشيئته وبإذنه. والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وهو نعم الوكيل، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه. ويتوارى مدح السلطان إلى مدح الشيخ، سلطان العلم بشعر ركيك لمدح مذموم^(٣).

(١) السابق جـ ١٠٦/٨٢/١٤٠/١٦٥.

(٢) السابق جـ ١٤٦/٢٦٨/١٤٣/١١٧/٢١٧، جـ ٣/١١٧-١١٨/١٧٤.

(٣) السابق جـ ٢/١-١٠٦/١٦٣/٢٣/٣٢/٨٣/١٧٢/٢١٥/٢٤٧/٢٨٩، جـ ٣/١١١، جـ ٢/٨٨.

٢- القليوبى. وتجمع تذكرة القليوبى فى الطب والحكمة للعالم العلامة والبحر الفهامة الشيخ أحمد القليوبى من علماء القرن الحادى عشر بين الطب والحكمة لبيان أن الطب جزء من الحكمة الطبيعية بصرف النظر عن ألقاب التعظيم والتبجيل التى تغلب على طريقة العصر^(١). وهو أقرب إلى الإبداع الخالص فى هذا العصر المتأخر. إذ لا تتجاوز الاحالات إلى الوافد جالينوس، ولا يتعدى الموروث حكاية ظرفية عن ضعف بصر أحد الأولياء فرأى النبى وشكى له فأمره بالاحتحال بحروق قشر اللوز الحلو. كما يذكر العود الهندى والهندبا وطاعون مصر والشب اليمانى وغيره^(٢). يعتمد النص على الأقل الخالص وفى نفس الوقت يجمع ما تفرق من تصانيف ويغنى عنها كالمسهل الممتنع. ويصنف الأمراض من أعلى إلى أدنى فى البدن. وفى البسملة والحمدلة تظهر العبارات الدينية الطيبة مثل الحمد لله الذى جعل نوع الانسان أكمل الأنواع وميزه بالنطق والادراك والاختراع وجعل صحة بدنه وعقله سبب وجوده والصلاة على محمد الذى اعتدل فى الجسم والأخلاق والطباع وعلى آله وصحبه الاتباع. لا دواء ولا داء الا بمشيئة الحكيم الأقدس. وهو الأعلم والملهم للصواب. وتتدخل الخرافات برسم ما ينفع الطاعون من الطلاسم تكتب فيها البسملة وآية ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى فى اناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾ أو ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا﴾، وعدد آخر من الآيات مع بعض الأسماء الحسنى مثل: فرد، حى، قيوم، حكم، عدل، قدوس فى شكل رباعى إلى آخر ما هو معروف من الطب السحرى الخرافى. ويخاطب القارئ، فالقارئ جزء من الخطاب حتى هذا العصر المتأخر.

مقتدر	رقيب
عليم	خلاق

٣- المنذرى. وكعادة كل الأشكال الأدبية فى صلة الوافد بالموروث، تنتهى كلها فى القرون المتأخرة بسيادة الموروث الخرافى الشعبى سواء فى الطب أو فى الفلك، فى بدن الانسان أو فى بدن الكون، فى العالم الأصغر أو فى العالم الأكبر. فإذا كانت تذكرة داود" أو القليوبى هو النموذج للطب الشعبى فان "كشف الأسرار الخفية فى علم الأجرام السماوية والرقوم الحرفية" للعلامة عمر بن مسعود بن ساعد المنذرى (١١٦٠هـ) يعتبر

(١) تذكرة القليوبى، مكتبة القاهرة (د. ت). وتقرأ التاء بالفتحة والكسر.

(٢) السابق ج١- ٥/١٧/٢٩/٢/٦٥/٧/٥٠/٦٦.

نموذج الفلك الشعبي، والتحول من علم الهيئة أو علم النجوم إلى علم التنجيم^(١).

وفى هذه الحالة تقل دلالة الموروث والوفاة، العنصرين المكونين للإبداع الفلسفى لصالح الواقع النفسى والاجتماعى للعلوم الاسلامىة التقليدية. ويتضح هذا المكون الثالث لدرجة احتوائه للمكونين الأولين. فالموروث هو الموروث الخرافى الأسطورى الموضوع. والوفاة هو الوفاة الخرافى الشعبى المنحول. يصبح الإبداع غير مشروط بمكوناته الأولى وتعبيرا عن الخيال الحر. فيتحول العلم إلى خرافة، والواقع إلى أسطورة، والعقل إلى خيال.

تظهر أسماء الأعلام فى الجزء الأول وتقل تباعا حتى تختفى كلية الجزء السادس. البداية بالتاريخ، والنهاية خارج التاريخ. كما يقل عالم الحروف الرقمية فى الجزء الأول ويكثر تباعا حتى يسود كلية الجزء السادس. البداية بعالم الأشياء، والنهاية بعالم الرموز.

يتضمن الجزء الأول تفى تقرير أصول علم النجوم والاضطرار اليه وفيما يخص كل برج وينسب اليه^٢ واحدا وأربعين بابا تبين فضل علم الحكمة، والنجوم والبحث عن الأسرار وأثر عالم النجوم والسحر المبني على تصفية النفس، وكلها بإذن الله^(٢). وكلها إسقاطات من النفس على الطبيعة، والإنشاء على الخير.

(١) عمر بن معبود بن ساعد المنزرى: كشف الأسرار المخفية فى علم الأجرام السماوية والرقوم الحرفية، ستة أجزاء فى ثلاثة مجلدات، أمون، القاهرة ١٩٨٣/١٩٨٦.

(٢) وهى: ١- علم الحكمة والنجوم والبحث عن الأسرار ٢- شرط الاستغفال به. ٣- تقرير الأصول الكلية والنظر فى ماهيته وأسبابه الفاعلية وأحوال من يمارسه، والإرادات والتأثيرات. ٤- معرفة طبائع الكواكب والبروج نظرا أم عملا. ٥- السحر المبني على تصفية النفس وتعليق الوهم. ٦- ضبط أعمال صاحب الصنعة. ٧- الدلائل على تأثير النجوم بإذن الله. ٨- باقى الاستدلال. ٩- ضبط أبواب العلم. ١٠- تقسيم الفلك لثنى عشر برجا. ١١- طبائع البروج. ١٢- البروج المذكورة والمؤنثة والنهارية والليلية. ١٣- صفات البروج. ١٤- ما أضيف إليها. ١٥- ألوان البروج. ١٦- طبائنها ودرجاتها. ١٧- الشمالية والجنوبية منها. ١٨- طبائنها وحظوظها. ١٩- مثلثاتها وأربابها. ٢٠- المنقبة والمجسدة. ٢١- المستقيمة والمعوجة والمتقفة (الطبيعة) والمتضادة. ٢٢- اتجاهات الفلك الأربعة. ٢٣- بيوت الفلك. ٢٤- أحوال مقياسة البروج. ٢٥- مناظرتها وأسمائها. ٢٦- تفاضلها فى القوة. ٢٧- مراتبها من الحفظ. ٢٨- دلالتها. ٢٩- قسمة منازلها. ٣٠- منازلها مع القمر. ٣١- أشهرها الرومية وموقعها من الشمس. ٣٢- زوال الشمس زيادة ونقصانا. ٣٣- الاستواء بالمنازل. ٣٤- فصولها وطبائنها. ٣٥- قياس ظل البروج بالأصابع. ٣٦- أجزاء الساعات. ٣٧- طولها. ٣٨- مغيب القمر وطلوعه. ٣٩- بروج القمر. ٤٠- سير الكواكب فى البروج. ٤١- حركات الأفلاك ومواضع الكواكب الثابتة وسيرها فى البروج.

والجزء الثاني "فى أحوال الكواكب السبعة السيارة ومعرفة طبائعها وما يعرض لها من السعادة والنحوسة وفيما يضاف لها وينسب إليها وفى قوتها وضعفها ودلالاتها" يتضمن ثمانين بابا تختلط فيها الطبيعة بالإنسان، ويتداخل فيها الموضوع بالذات، ويظهر فيها أثر الكواكب فى مصائر البشر سعادة وشقاء، وإسقاط العالم الإنسانى على العالم الطبيعى فى قسمة الكواكب إلى مذكر ومؤنث وتفاوتها فى مراتب الشرف، والصدقة والعداوة، وشقائها ونعسها، ويقينها وحيرتها، وربط الكواكب وحركاتها على أفعال البشر مما يسلب حرية الإنسان وقدراته الطبيعية، وقضاء حوائجها أو وقفها. فهى عالم إنسانى من الاستعلاء والقوة والفاعلية والكمال (١).

والجزء الثالث "فى تسخير الكواكب وفيما ينسب إلى كل كوكب مكنها من الأعمال والمطالب فى ساعاتها". ويضم ثمانية وعشرين بابا، تدور معظمها حول مفهوم التسخير،

- (١) وهذه الأبواب هى باختصار: ١- حال الكواكب السبعة من الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، ٢- حالها فى السعادة والنحوسة، ٣- ذكورتها وأنوثتها، ٤- ليليتها ونهاريتها، ٥- تسريعها وتغريبها، ٦- مدة استقامتها، ٧- مدة رجوعاتها، ٨- رباطاتها، ٩- مدة الاحتراقين، ١٠- ظهورها واختفائها، ١١- قريبا وبعدها عن الشمس، ١٢- أنوارها كأجرام، ١٣- إضافاتها من الكواكب، ١٤- تعلقها بالبروج، ١٥- وبالآتها، ١٦- أشرفها، ١٧- هبوطها، ١٨- أرباب المثلثات، ١٩- النهيية، ٢٠- وجوه البروج، ٢١- النريجان، ٢٢- الكواكب الخمسة المتحيرة والبروج الاثنا عشر، ٢٣- اثنا عشرية البيوت للكواكب، ٢٤- حيرتها، ٢٥- فرحها، ٢٦- ترحها، ٢٧- الدستورية، ٢٨- صداقتها وعدواتها، ٢٩- مراتبها، ٣٠- اتصالها بالقمر، ٣١- اتصالها وانفصالها، ٣٢- تفاصيلها، ٣٣- حالاتها، ٣٤- قواها واستعلاء بعضها على بعض، ٣٥- ضعفها وإضرارها بالمواليد، ٣٦- سعادتها ونحوسها، ٣٧- صلاح القمر، ٣٨- فساد القمر، ٣٩- حظوظ الكواكب وبيوتها، ٤٠- أوجاتها، ٤١- صعودها وهبوطها وسرعتها وبطؤها، ٤٢- طبائعها، ٤٣- عروضها فى الشمال والجنوب، ٤٤- شهادتها فى قضاء الحوائج، ٤٥- شهادات صاحب الطالع، ٤٦- قضاء الحوائج وفسادها، ٤٧- قبولها لبعضها البعض، ٤٨- صحة قابل التذبذب، ٤٩- مقاصد أدلة كمالها، ٥٠- الأمور الكلية المحظورة، ٥١- دليل الطالع، ٥٢- معرفة الضمير، ٥٣- أحوال السائل، ٥٤- حمل السهام، ٥٥- الاختيارات، ٥٦- تفاصيلها، ٥٧- اتصال القمر بالكواكب، ٥٨- مازجتها بزحل، ٥٩- اتصالها بالمشتري، ٦٠- اتصالها بالمرىخ، ٦١- اتصالها بالشمس، ٦٢- مازجتها بالزهرة، ٦٣- مازجتها بعطارد، ٦٤- حلولها فى أشرفها، ٦٥- رأسها وذيلها، ٦٦- ظهورها بالمشرق، ٦٧- غرسها، ٦٨- رجوعها، ٦٩- استقامتها، ٧٠- اختياراتها، ٧١- طبائعها وتأثيراتها، ٧٢- سائر أقسام الصناعة الاتفاقية الفلكية، ٧٣- الاستدلالات النجومية، ٧٤- النيران، ٧٥- تعلقها بالقمر والشمس، ٧٦- المتجانسات فى السعادة والنحوس، ٧٧- الكواكب المتحيرة، ٧٨- مدة الكواكب والبروج والمنازل، ٧٩- الأفلاك والبيوت والوبال والشرق والهبوط والحظوظ والأفراح والأفراح والمعادن والطبايع، ٨٠- صاحب السنة والوالى عليها من الكواكب.

تسخير الكواكب فى حياة الانسان عن طريق السحر، كوكبا كوكباً، القمر و عطارد
والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، ودفع مضارها وكيفية الاستعانة بها
وحمدها وأثرها فى زرع المحبة والكراهية فى نفوس البشر وطرق عمل الطلسمات فى
مختلف ساعات النهار^(١).

والجزء الرابع "فى علم الحروف المرقومة وما يخصها من الأسرار المكتوبة"
يعرض سر حرف حرف من الحروف الأبجدية بلا فصول أو أبواب مثل باقى الأجزاء
ضارباً المثل بمعنى البسطة كما هو الحال عند ابن عربى وتقابلها مع تاريخ النبوة. فلكل
نبي حرف ورقم وما يقابله من الطبائع. ويبدو أن تتبع الحروف الثمانية والعشرين ابتداء
من الألف حتى الياء أغنى عن تقسيم هذا الجزء الرابع إلى أبواب وفصول. وحروف
أوائل السور جزء من النظرية العامة فى الحروف الرقمية. وكل حرف له شكل
ومضمون يميلان إلى درجة المعرفة ومرتبة الوجود. والحروف ليست مرتبة أبجدياً بل
بتغير ترتيبها وفقاً لتسقى خاص.

والجزء الخامس "فى علم التكسير وحزب الأوقاف واستخراج الأسماء والأقسام
وإظهار الأرواح النورانية". ويضم ثلاثين فصلاً حول أثر أفعال الافلاك فى العالم
الانسانى. ويغلب عليها موضوع الحروف، طبائعها ومراتبها، وتصرفها، وأنواعها،
وأسرارها، ومعانيها، واستخراج الحقائق منها، والأصول اللازمة لها، وطرق تكسيرها،
ووجودها فى أم الكتاب، وطبائعها، سعدها ونحسها، منافعها ومضادها، وما ينسب إلى
الأيام السبعة من الكواكب والآيات والملائكة العلوية والسفلية والعرشية، وكيفية العمل فى
كل يوم، وتسيح الملائكة، وتجريد النفس، وشرح تركيب الغزالي وفق زحل، وصفة

-
- (١) وهى: ١- الطبائع الثام فى الانسان من النفوس الفلكية. ٢- أنواع السحر. ٣- أصول الصناعة.
٤- كيفية التعامل لتسخير الكواكب. ٥- تسخير القمر. ٦- تسخير عطارد. ٧- تسخير الزهرة.
٨- تسخير الشمس. ٩- تسخير المريخ. ١٠- تسخير المشتري. ١١- تسخير زحل. ١٢- دفع مضاد
تسخير الكواكب. ١٣- دخن الكواكب. ١٤- قراناتها. ١٥- كيفية الاستعانة بها. ١٦- كيفية التسايح
لها والثناء عليها. ١٧- أسماء أرواحها. ١٨- أسماؤها الوهمية. ١٩- عملها فى الحب والبغض
والتمريض والنوم والأسنة والسحر. ٢٠- الاشكال المتقابلة والمتنافية والمتشابهة فى أسباب الحب
والدفع. ٢١- نجورات الكواكب. ٢٢- أعمال الطلسمات. ٢٣- كيفية الطلسمات. ٢٤- الأعمال.
٢٥ - ساعات الأيام واليالى. ٢٦- أسماء وساعات النهار. ٢٦- ساعات الليل. ٢٧- ساعات النهار.
٢٨- الساعات المنكرة والمؤنثة والسعدة والنصبة.

الأقلام، وآداب الدعاء وأوقاته وفضله، وشروطه وآدابه^(١).

والجزء السادس "إغاثة اللفهان في علم تسخير الروحانية والجان" أشبه بكتاب مستقل خاتمة للكتاب نفسه. ولا ينقسم أيضاً إلى أبواب أو فصول. فالتصوف يرى العالم بعين الوحدة المطلقة. وتكشف الأسرار المخفية في الأحجية والطلسمات.

ولما كان تمثل الواقد مع تنظير الموروث^٢ حالة افتراضية صرفة فالتعادل ليس وسطاً حسابياً بل هو تعادل نسبي. قد يزيد الواقد على الموروث وهو الاحتمال الأقل. وقد يتضخم الموروث على حساب الواقد وهو الأغلب. ويقل الواقد والموروث تبعاً. يظهران في المجلد الأول، ويقلان في المجلد الثاني، ويكاد يختفيان في المجلد الثالث. ما زالاً يمثلان نقطة بداية في التاريخ، تاريخ الآخر اليوناني وتاريخ الأنا العربي الإسلامي. ثم يتحول النقل التاريخي إلى إبداع خارج التاريخ.

ويداخل الواقد الشرقي مع الواقد الغربي. فالشرق موطن السحر، والغرب السحري أثر من آثار الشرق. ويتصدر الواقد البابلي مثل تنكوشا المذكور عند ابن وحشية في "الفلاحة النبطية"^(٢). ويذكر أيضاً أبوراطيس البابلي وأسماء أخرى شبه هندية يونانية مثل بهرماطوس، سمهياطس. ويذكر الكلدانيون باعتبارهم رواد علم الفلك الأوائل والعالمين بأسرار النجوم. وهم في نفس المنطقة الجغرافية التي نشأت فيها الصابئة عبدة الكواكب، دين قوم إبراهيم. ويذكر كسرى من الموروث الفارسي.

ومن الواقد اليوناني يذكر أرسطاليس وهرمس ثم بنداغوس والاسكندر، وبطليموس،

(١) وهي: ١- أفعال الأفلاك وآثارها في العالم الانساني. ٢- أصل وجود الحرف من العدم. ٣- أسرار أرواح الحروف. ٤- طبائعها ومراتبها. ٥- الأحرف السعيدة. ٦- التعرف بها. ٧- التعرف بالأحرف النحسة. ٨- التعرف بالأحرف الممتزجة. ٩- الأحرف النورانية. ١٠- الأحرف المظلمة. ١١- الحروف الناطقة. ١٢- أسرار الحروف. ١٣- التنكير والتركيب والمزج واللبط. ١٤- خواص الأعداد والأوقاف وتعلقها بالكواكب. ١٥- استخراج أحلال الأوقاف. ١٦- استخراج القسمة الروحانية والخادم من الحروف. ١٧- أحوال المتصرف وشروطه. ١٨- معاني التنكير وأسراه. ١٩- طرقه. ٢٠- أسماء الله الحسنى واسم الله الأعظم. ٢١- تأثيرات كل اسم. ٢٢- الحروف الساقطة من أم الكتاب وأشكالها وطبائعها وسعدها ونحسها ومنافعها ومضادها. ٣- الأيام السبعة من الكواكب. ٢٤- العمل اللازم المطلوب في كل يوم وخدامه وأعوته وأسماء أرواح الكواكب والأيام. ٢٥- تسييح الملائكة. ٢٦- تجريد النفس وتهذيبها وتصفيتها. ٢٧- شرح تركيب الغزالي وفقاً لرحل. ٢٨- صفة الأقلام. ٢٩- الدعاء وآدابه وأوقاته وفضله. ٣٠- شروطه.

(٢) من النقل إلى الإبداع جـ ١ النقل، الفصل الثالث، الانتحال، ص ٣٨٢-٣٩٥.

وأسطالينوس ثم سقراط، وأبقراط. وأرسطو هو المنحول الاشرقي الصوفي وكذلك كل فلاسفة اليونان. أما هرمس فهو زعيم السحرة وهو إدريس النبي (١).

وبالرغم من ظهور أسماء بعض الفرق مثل الحكماء والفلاسفة والقدماء والمشايخ القدماء والحكماء الفلاسفة وهو ما يشير عادة إلى حكماء اليونان إلا انه يشار إلى فرق شرقية أخرى، ليس فقط المعروفة منها مثل الكسدانيين وهم الكلدانيون بل أيضاً غير المعروفة مثل الأنوسيين والزماطرة.

والموروث الغالب هو القرآن والحديث. والغالب على الآيات، آيات المعجزات والسحر وغرائب الطبيعة وعجائب الكون أو آيات النور والاشراق والإيمان أو آيات الكون، الخلق والبعث، أو آيات المعاد. فلا فرق في الكون بين الدنيا والآخرة. ويتحول القرآن إلى آيات سحر ومعجزات لشفاء الأمراض بكتابتها في الأحجية والطلسمات. ويتحول التنجيم إلى الطب. ومعظم الأحاديث موضوعية عن الحروف والأرقام والكتب المنزلة. وتدخل الاسرائيليات، ليس فقط أنبياء بنى إسرائيل، آصف بن برخيا، وسليمان وموسى، بل كل الأنبياء الذين كانت لهم علاقة بالخوارق والمعجزات. فالدين واحد.

ومن الموروث يذكر أبو معشر البلخي ثم أبو العباس البوني، وقسطا بن لوقا، وعلى بن أبي طالب ثم ابن سينا، والغازن والأصفهاني، وابن سبار، والجمعيني، والقمي، والخياط، والغزالي، وجابر بن حيان الصوفي، والكوفي، والحامدي وأبو سعيد. وواضح تداخل الفلاسفة مع الصوفية والعلماء والصحابة في رؤية واحدة، العلمية الصوفية (٢). وأسماء البقاع كلها عربية لا يونانية. وتكثر البسملات والحمدلات وكان الإيمان الديني قادر على فك أسرار الطبيعة. كما تتردد عبارة "الله أعلم" مما يوحي بالأسرار، وباتساع محيط العلم.

وهو كتاب تجميعي شامل. يبدأ بالفلك وينتهي بالطب والكيمياء. يعتمد على نصوص سابقة يعاد توظيفها واستخدامها في الهدف الجديد الذي يعبر عنه العنوان، كشف الأسرار الخفية في علم الأجرام السماوية. وقد يساهم الناسخ في التجميع. فالهدف هو ملأ القالب وليس المادة. ويبدو ذلك في الجزء الرابع عن الحروف الرقمية المقتبس من كتب

(١) ابن وحشية (٤)، أرسطاليس، بهرماتوس، هرمس، تنكلوشا (٣)، بنداغوس، سطلينوس، بطليموس،

الاسكندر (٢)، سقراط، بقراط، سمهياطس، كسرى، أبورايطس البابلي (١).

(٢) أبو معشر البلخي (٥)، قسطا بن لوقا الغزالي (٢)، أبو العباس البوني، على بن ابي طالب، للغازن،

الأصفهاني، ابن سينا، الجمعيني، الحامدي، البوسيدي، القمي، الخياط، جابر بن حيان الصوفي، للكوفي (١).

أخرى لنفس المؤلف مثل كتاب الاقتباس.

تغيب عنه البنية. ويخلو من الأبواب والفصول. بل يخلو من ترقيم الصفحات، مكتوب بخط اليد، بالأسود والأحمر وعلى ورق مطرز محشى بالزخارف، مملوء بالرسوم التوضيحية والجداول بالحروف والأرقام. وتتخلله عبارات غامضة مثل عبارات "شمهورش" فى الثقافة الشعبية لتوحى بعالم الأسرار وحديث الجن. ويعتمد على أسرار الحروف. وهو ما يوحي به الجزء الأخير من العنوان "والرقوم الحرفية" والتقابل بين أسرار الحروف وأسرار الأرقام.

ولا يخلو الكتاب من سجال ضد علم النجوم كعلم طبيعى ينكر أن تكون الأفلاك كائنات حية ناطقة. لم يستمر من الفلسفة القديمة المنطق بل من أضعف أجزاء الطبيعيات وهو علم التنجيم بالرغم من تفرقة الفارابى فى البداية بين العلمين ونقد علم التنجيم فى "ما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم". ولا يظهر من موضوعات الفلسفة القديمة إلا فيما ندر ودون أساس علمى أو فلسفى مثل علم الله بالجزئيات.

ويخاطب المؤلف القارئ على عادة المؤلفين المسلمين خاصة إخوان الصفا من أجل تجنيده للدعوة. فليس الهدف هو المعرفة النظرية بل الإرشاد العلمى.

ويحال إلى أعمال أخرى مشابهة مما يدل على أن "كشف الأسرار المخفية" ليس حالة فريدة أو مؤلفا واحدا بل يدل على تيار عام فى القرون المتأخرة، فى الفترة الثانية من تطور الحضارة الإسلامية ما بعد ابن خلدون التى حلت فيها الذاكرة محل العقل، والشرح محل المتن، والخيال بدل الواقع، والخرافة بدل العلم^(١).

وكما بدأ العرب شعراء، ثم أصبحوا مفكرين وعلماء انتهوا إلى شعراء. فغلب الشعر على العلم، ووجد العرب فى ثقافتهم الأولى هويتهم الأخيرة، وكان العلوم القديمة التى نشأت فى الفترة الأولى للحضارة الإسلامية كانت مجرد قوسين كبيرين.

الهدف منه السيطرة على عالم الأفلاك والكواكب من أجل إعادة السيطرة على العالم عن طريق أثر الأعلى فى الأدنى، وعالم السماء فى عالم الأرض، والروح فى البدن، فالعجز عن تأسيس العلم الطبيعى والسيطرة على العالم يتحول إلى التأثير فيه عن طريق السحر من خلال الكواكب والأفلاك، والملائكة والأرواح، والجن والشياطين كما

(١) مثل "أسرار الأدوار" وتشكيل الأنوار فى أسرار الحقائق الكائنة" و"الأسرار النورية فى النورانية".

هو الحال فى قراءة الطالع، والسعود والنحوس طبقا للكبراج فى الثقافة الشعبية. لذلك تظهر لغة الملوك والسلاطين والرؤساء كما هو الحال عند الصوفية والقاب الأقطاب والأبدال. فمنهم تنشأ السلطة وتصدر الأوامر وما على الناس إلا السمع والطاعة. ويكثر استعمال لفظ "التسخير" وهو مفهوم قرآنى، تسخير الله الطبيعة لصالح البشر عن طريق العلم بقوانين الطبيعة. وهنا عن طريق السحر وتأثير القوى الروحانية فى مسار الطبيعة وأحداث الواقع والتاريخ.

كلها إسقاطات انسانية. غياب الواقع وحضور الوهم. لا فرق بين الدنيا والآخرة، بين الخلق والبعث، بين المادة والروح، بين التنزيل والتأويل، بين الذهاب والاياب فى إطار حركة كونية روحية للخلاص مما يأذن بنهاية الفترة الثانية فى تطور الحضارة الاسلامية وبداية فترة ثالثة فى أعقاب التحرر من الاستعمار الحديث والصلة بالوفاة الغربى الجديد.